بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة اهـ

ونحن نوصى القارىء أن لا يغفل خصوصاً عن خطب على بن أبى طالب كرم الله وجهه فان نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكاتب يستقيان منه مادة عقل وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا استظهر نهج البلاغة وتفطن لما فيه من النكات العلمية معتمداً مثلا على شرح ابن أبي الحديد المطول وتمرن فى أساليب الخطابة على مناحى البلغاء والعرب المستعربة والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن فى هذا العصر أيضاً فان كلام أمير المؤمنين رضى الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكلما كررحلا ، ومهما تأملته علا ، ففى كلامه عبقة من النور الأعلى ، ونفحة من الروح النبوى ، ولو لم يكن لسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً فى شرفه وبيانه وأن يجرى على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة

## الخطابة عند الأفرنج

من تأمل فى تاريخ الطرق الخطابية ير أن القدماء [1] أفرطوا فى فن الخطابة وانه وان صعب العثور على مبدأ معين فى كتب الاقدمين وطريقتهم فى خطاب الجمهور فان جميع المصنفات التعليمية تحوى إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم الكلام ، فان علم الخطابة لم يكن فى نظر القدماء هو علم التكلم والالقاء ، بل علم تحسين الكلام وتنميق الانشاء . ومن تلا كتاب الجمهورية لأفلاطون وفيه مباحث جليلة فى الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آثينة كانوا ينمقون العبارات قبل أن يتلوها وتتراءى له من خلال سطورهم آثار التعمل والاستمداد قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، واذ كان يحظر على المحامى فى آثينة أن يدافع عن غيره اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم فى الدفاع ويعطوها لغيرهم يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء فى يونان وان وجدوا فهم على ندرة

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الأقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها

١ كتاب الكلام فى الجمهور لموريس آجام Maurice Ajam : La parole en public

ما كان بقي لنـا من كـلامهم إلا النذر اليسـير ، وذلك لأن فن الاختزال لم يكن يعهد اذ ذاك بيد انه مما لاشك فيه أن بعض خطباء اللاتين الذين وصلتنا خطبهم قد ألقوها بدون أن يستعدوا لها بكتابتهـا ، وكان من العادة أن يعود الخطيب عنـدهم فيدون بالـكتابة ما قاله من خطاب كما فعل شيشرون فى بعض خطبه ، والحق الذى لامرية فيه ان الخط طالمـا اعتبر فى اليونان ورومية بانه الأسلوب الوحيد فى الجملة لأعداد الـكلام ليلقى على المسمع العام . ويجب أن يلاحظ أن الخطيب الآتينى مهما بلغ من ثقته بنفسـه لم يكن يجسر أن يقف موقف الخطابة قبل أن ينظر نظراً بليغاً فيما سيلقى عليهم لانه عارف بدرجة مدارك الحضور ومعرفتهم نقد ما يقول وما بقى من خطب خطباء يونان هو مما هذبته أناملهم ، ونظرت فيه عقولهم ، ملاحظين فى ذلك أنهم سيخلفون ذلك للاعقاب فلا يليق أن تـكون إلا من أحسن ما يجب

وطالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على إلقائها حتى انه فى سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على كيفية الألقاء . وكان القدماء يعلقون شأناً عظيما على الالقاء فى المجالس العامة حتى لقـد افرط شيشرون فى قوله بأن الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة . فقد كـتب الى أحد أصحابه ان الرسالة لايمكن ان تشبه دفاع المحامى أو خطابا سياسياً فانه تستعمل فيه جمل شائعة بالاستعمال . بيد ان كـثيرين من خطباء اللاتين وقدماء خطباء اليونان كانوا لايحفلون باعداد خطبهم ويظهر ان هورتانسيوس وهو استاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياه وهورتانسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذاكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه ويؤلفها فى الحال جاريا فى ذلك على طريقة شارلماد وميترودور وهما خطيبان آثنيان كانا يعدان فى ذهنهما ما يريدان القاءه

وكانت طريقة القائد الخطيب الرومانى « كالبا » غريبة فى بابها فكان ينقطع فى داره مع خدامه غداة يريد أن يلقى دفاعاً ويلقى عليهم ممرناً نفسه فيما يريد أن يخوض عبابه فكان يخرج من الغد فى حالة تهيج خارقة للعادة وعيناه تقدحان شرراً وهو على غاية التحمس يعبث به هواه ويذهب الى ميدان الفوروم . واعتاد بعض شبان الخطباء من الرومان أن يأتوا الى المحكمة بدفاعهم مكتوباً على الورق

وكان كنتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء فى أعداد ماسيتلون ولا سيما للمترشح للخطابة المبتدىء فيها ويرى ان الارتجال لا يتأتى للمرء الا فى أواخر عمره بعد ان يكون ذاق الامرين فى تعلم صناعة الخطابة وعرف حلوها ومرها. ولم يكن فى عهده وهو القرن الأول للمسيح سوى خطيبين مرتجلين هما بورسيوس لاترو وكاسيوس وما عداهما فكانوا كـكل الناس يعدون خطبهم قبل القائها

وكان بوسويه خطيب الفرنسيس المتوفى سنة ١٧٠٤ يكتب خطبه على الورق فيرسمها ثم يتوقع مايوحيه اليه المنبر ليجعل فيها حياة وحركة وظلت الاصول المتبعة فى فرنسا مدة القرن الثامن عشر بأن يقيد المحامون والخطباء أقوالهم . هكذا كان يسير أكبر المحامين كوشين . ولما حدثت الثورة الفرنساوية الأولى اضطر ارباب السياسة الى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا من قبل ثم ارتقت الخطابة عندهم فى الكليات والمحاكم والمجالس حتى قال موريس آجام مامن شيء يضاد الارتقاء فى الخطابة أكثر من أعدادها بالكتابة قبل الالقاء فاذا كان وصل كبار المتكلمين الى أرقى درجات الفصاحة فبدونها وصلوا أو بعبارة ثانية على الرغم منها

ويرى ان يتمرن المرء على الارتجال بان يرتجل كل صباح فى موضوع من الموضوعات لنفسه ولو ربع ساعة فيتمرن جرسه وصوته وذلك بأن يذكر دائماً قاعدة ينيبون ان المرء يتعلم الارتجال بتكرار العمل فيه . وان الواجب تعويد الناشئة النطق منذ نعومة اظفارهم وان صناعة الخطابة ولاسيما الارتجال لا يتعلمها من جاز الأربعين من العمر ولا من جاوز الثلاثين فالاولى ان يبدأ بها منذ الصغر وانه من اللازم على من يريد تعلم الخطابة ان يستنصح صاحباً له يدله على عيوبه فى النطق والاشارة وان يأخذ النفس كل يوم بسماع . صاقع الخطباء لا متوسطيهم حتى يتعلم منهم . فان المتوسط يفسد عليه ملكة الخطابة ولذلك كانت العواصم والحواضر أكبر ميدان للتخرج فى الخطابة لان فيها من أهل الطبقة العالية أصنافا من الخطباء . وذلك لأن السماع يجعل المتكلم متكلماً وفكر البشر يغتذى بالتقليد . وعليك ياهذا ان لا تعمد الى استعمال الغريب ولا تتقعر بل توخ السهولة

ومألوف الناس من الكلمات تؤثر فيهم وتفعل فى عقولهم . لا تعمد لغير الوضوح ودع الكلمة النادرة للشاعر والكلمة العويصة للفيلسوف واذا اعتقدت انه يكفي الانسان ان يتلو كتابا يبحث فى أصول الخطاب حتى يصبح خطيباً فألق سريعاً هذا الكتاب طعاماً للنار

كان بوسويه نصف مرتجل يعد مفكرات لخطبه ثم يزيد عليها وينقص منها عند الالقاء وكان فلشيه وفنيلون فى مواعظهما يعدان مايلقيان من قبل ويستظهرانه وكان كوشين يعد من قبل مدافعاته حتى استطاع فى آخر عمره ان يرتجل . وكان المحامى جربيه يعد مايخطب به مطولا ولا يزال يمحو منه حتى لا يبقى على أكثر من عشرين سطراً وكان تارجه يكتب دفاعه برمته ويقرأوه وكان ميرابو خطيب الثورة ممن يعتمد على الكتابة ليخطب فاضطرته السياسة ان يرتجل وما كان يحسن الكتابة وهو مستريح البال اما اذا هاج فانه يعاود القلم ويكتب فى الجملة وكان يبدأ بخطابه متأنياً فى بادىء الامر ويتحمس بالتدريج وكان فيرينو من خطباء الثورة لا يخطب الا اذا تألم لظلم يقع أو حاذر خطراً يدهم وعندها تنتبه حواسه ويفكر سريعاً ويعمل فى ساعة مالا يعمل فى ساعات . بدأ محامياً وكان يكتب دفاعه ويتلوه ثم كف عن الكتابة وكان يعد كل الاعداد خطبه الكبرى ولا سيما فى تلاوتها لاصدقائه من قبل أن يلقيها على الجمهور وهذه الطريقة هى التى جرى عليها بعد حين تيرس رئيس الجمهورية الاول فى الجمهورية الثالثة والعالم المشهور

وكان كواديه من خطباء الثورة يكتب خطبه عند ما كان محامياً ولما أصبح خطيباً سياسياً صار يرتجل وكان ايسنارد من خطباء الثورة مرتجلا ولكنه كان يكتب . وكان دانتون خطيب الثورة الخطيب التام الأدوات فى الثورة وأقدرهم على ادراك حاجة عنصره . وكان أرول دى سيشل من خطباء الثورة يكتب ويحفظ خطبه ويعمل بقول فولتير : ان الالفاظ بريد الافكار . وكان روبسبير من خطباء الثورة يعد خطابه ويمحو ويثبت كثيراً كتلميذ مبتدىء ومعظم خطبه اخترعت وألفت من قبل ان تنشر لم يتوسع فيها عند مايقولها . وكانت طريقة بانجامان كونستان الكتابة لما يخطب به مثل القائد فواولافيت ودوبون وروبه كولار . وكان النائب مانويل مرتجلا لا يكتب خطبه الا فى أمور المالية . ولم يتخل

دى مارتينيان عن كتابة مايريد القاءه مع انه يرتجل أحسن ارتجال ومن كان يسمعه يتكلم بصوت رخيم يستريح ويسكت وينوع لهجته يستدل على انه يرتجل . وكان لينه مثل كواديه ورافيسه وفيرير من أمراء الكلام لم يجعل التقيد بالكتابة الا مقاماً ثانوياً . وفيرير كان من أعظم من وجد من رجال المحاماة كان يفكر طويلا فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة صرفاً . وكان هانكن من رجال المحاماة لا يأنف طول حياته من أعداد خطبه . وكان بريه المحامى لا يكتب خطبه ولم يعرفوا طريقته فى خطبه هل كان يحدث بها أصحابه قبل أن يلقيها كما كان يفعل فرنيو وتيرس أو يفكر فيها مثل فيرير أو يكتبها فى فكره مثل هورتانسيورس والذى عرف عنه وكان يكتم طريقة نبوغه ان كلامه كان يسبق فكره وانشاؤه كان منحطاً

وكان الاخوان دوبين المحاميان يرتجلان ولكنهما يدرسان موضوعهما حق الدرس قبل النزول الى ميدان الخطابة وكان أحدهما يأسف لان الوقت لا يساعده ان يفكر ملياً فى خطابه ويقول لو أكثر ديموستين وشيشرون من الدفاع كثيراً لقلنا لم يكونا ديموستين ولا شيشرون . وكان تيرس يعد معظم خطبه من قبل بان يلقيها مرتين وأحياناً أربعاً على من يغشون مجلسه . ولم يكن فيكتور هوغو الشاعر الكبير خطيباً بل كان يضطر ان يكتب خطبه ويستظهرها ولطالما قال لا يستطيع المرء ان يكون خطيباً حقاً الا اذا كتب خطابه . زهد المحامى لاشوفى الكتابة وكان لا يقيد الا رؤوس المسائل التى يتكلم فيها . وكان الوزير غامبتا لا يكتب ما يخطب وهو يشبه نابليون بعقله وذاكرته وكان يعد بعض خطبه الاولى من قبل فاما نشبت الحرب أخذ يرتجل حقيقة وكان فى خطبه يبدأ بصوت منخفض جداً حتى يكاد يقول له الحضور اسكت وبعد هنيهة ترن القاعة من صوته وتدهش لفضل بيانه . وكان المحامى ليون دوفال يعد خطبه من قبل محتفلا بها من وراء الغاية . وكان الدوج دى بروكلى يتأنق فى أعداد خطبه ولكنه يستطيع ان يرتجل على أيسر وجه وكان بوفه مرتجلا يؤثر بفصاحته فى مجلس الشيوخ فى مسائل كثيرة وان كان عضواً من حزب قليل فى الوزراء . وكتب المحامى الايطالى هنريكو فرى

عن نفسه فقال : انه تعلم بان كان يقصد الضواحي ويرفع صوته ويجرب نفسه بالخطابة حتى خطب مرة ثماني ساعات متوالية ومرة احدى عشرة ساعة

***

ونشر آجام عادات طائفة من الاساتذة والمحاضرين من العلماء في الخطابة من الفرنسيس فكان منهم أناس يفكرون ملياً قبل أن يخطبوا أي انهم يعدون الكلام أو معناه ومنهم من يكتب مايريد قبل القائه وآخرون يرتجلون والاكثر في هذه الفئة الكتابة قبل الالقاء لان خطبهم علمية على الاغلب ولا يرتجل عادة سوى السياسيين . وعلى من أحب أن يجودها ان يخطب لنفسه في متنزه أو قاعة خاصة مرة أو عشر مرات ريثما يستجم قريحته ولا تخونه الالفاظ وكل مرة في الموضوع الواحد تزيد معانيه وتغزر ألفاظه ويجب أن لا يهتم لانتقائها والتنطع فيها بل يكتفي بما جاءه عفو الخاطر وابن الساعة

وقد سأل المؤلف كثيرين من المشتهرين بالخطابة من قومه المبرزين فيها عن طرقهم في تعلمهم وارتجالهم فمنهم من قال انه يفكر ملياً في محاضراته بان يقولها بصوت منخفض أولا وأحياناً يقولها في عقله وانه لا يكتب كتابا صغيراً قبل ان ينشئه في عقله ويستظهر الجمل الاربع الاولى حتى لا يفجأه الحضور اذا مثل أمامهم. ومنهم من تحضره الافكار اذا أمسك القلم وقيدها ولكنه يحاذر استظهاره وهو يرى ان من يكتب محاضرته وخطابه يتعلم الارتجال مع الزمن ومنهم من تتمثل لعينيه المعاني والالفاظ عند مايشرع في الكلام كأنها مكتوبة امام عينيه . ومنهم من ينظم الافكار التي يحاضر بها على الورق ثم يرتجل ويستعد قبل الكلام ان يقول في ذاته مايجب القاءه على الجمهور مرة أو مرتين وقال انه بكتابته خطابه من قبل يسقط على الافكار التي لا تجيئه بصورة أخرى . ومنهم من قال ان خير طريقة لاستظهار مايريد القاءه ان يكتب تلك القطعة ومنهم وهو استاذ عظيم يعد موضوعه أولا ثم يعين في عقله أفكاره ثم يخط لها خطة ثم يفكر في البراهين التي عثر عليها ونظمها

ومنهم من ضعفت ذاكرته فيضطر للاستظهار أن يحرك شفتيه بما يحفظ حتى

يعلق شيء منه فى ذهنه ومنهم من لا يحسن الكلام إلا اذا اضطربت نفسه وفرحت أو سخطت فانه فى تلك الحال يسرع فى خطابة غير مبال اما اذا لم يكن على حاله من تلك الحالات فيتلعثم ويتردد ولا يعثر على اللفظ الذى يريده والخجل الذى يشعر به يزيد هذا الارتباك ومنهم من لا تأتيه الافكار وتواتيه الا اذا كان القلم بيده . وآخر يستظهر المقدمة والخاتمة ومعظم الجمل الأساسية ثم يتكلم ويترك الباقى للمصادفات . وغيره يرى أن الكلمات تولد فيه الأفكار وتفتح أمامه أفقاً جديداً وهو يدرس موضوعه بالأيجاز ويفكر فيه قليلا أو طويلا بدون أن يحكيه ولا يكتبه فى عقله ويكتب أو يحاول أن يكتب والكتابة تسهل بزوغ الفكر أحياناً وأحياناً يتضرر من الكتابة وتفلج قريحته . وبالجملة فان الكلام فى الجمهور من شأن الحكومات الديمقراطية والخطباء يكثرون كما قال مونتين حيث تكون الامور تتقاذفها العواطف الدائمة بين أخذ ورد

وقال ريبو ان معرفة الموضوع الذى يريد الخطيب الخوض فيه ورسم خطته فى الفكر بسيطة للغاية من قبل وهما شرطان لازمان للأجادة فى الخطابة وما عدا ذلك فهو من شأن الحضور المستمعين أكثر مما هو من شأن الخطيب وأسعد ضروب الأرتجال ماساعد فيه الحضور بتراسل عيون الحب بينهم وبين خطيبهم والعبرة فى معرفة روح الجمهور فان له مناحى خاصة فى الحسن والتعقل والفهم حتى ولو كان مؤلفاً من فلاسفة وعقلاء قال ماكس نوردو : اجمع عشرين أو ثلاثين من أمثال كيتى وكانت وهلمهولز وشكسبير ونيوتن واعرض على حكمهم وآرائهم المسائل العملية الحاضرة فان قراراتهم لا تختلف بتاتاً عن مقررات أى مجلس كان . ولماذا يكون ذلك ؟ لأن كلا من العشرين أو الثلاثين منتخباً فضلا من تفرده بمزايا تجعله رجلا فائقاً قد ورث بعض صفات نوعه مما يكون به مثيلا لجاره فى المجلس بل شبيهاً لعامة الاشخاص الذين يمرون فى الشارع فان الجوهر الأنسانى مستحكم من شخصية المرء وطربوش العامل يغطى قبعة الفيلسوف

وبقدر ما يستطيع الخطيب قيادة جمهور سامعيه يفعل فى أرواحهم ويسوقهم الى حيث يريد . ومن أجمل ما قاله بريان من خطباء فرنسا ان الخطاب ليس قطعة أدبية بل هو عمل والخطاب لا يعمل ليقرأ بل ليسمع وصورته التى يظهر فيها

ثانوية فالتأثير يحدث والنتيجة الحاصلة هى كل شىء . ومراعاة القواعد مطلوبة فى الخطاب ولكن مهما كانت قيمته من الوجهة الأدبية فانه اذا فصل عن محيطه الذى ألقى فيه وفارق الاسباب التى دعت اليه هل يكون له شأن صحيفة جميلة من الأدب استخرجت من قلم أستاذ فى الكتابة

* * *

واليك بعض نصائح عمليـة لطالب النبوغ فى الخطابة منها أن يجتنب حق الاجتناب كل استعداد كتابى للخطاب : أن يحمل الخطيب نفسه كل صباح ولو عشر دقائق على أن يتكلم كثيراً فى مكان عام أياً كان نوعه وان لايكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها سواء كان فى عقله أو بصوت جهورى . فالتفكر والكلام قبل الكتابة فى أى شىء كان مطلوبان . وان لايعد خطابه فى آخر ساعة بل يجب أن تكون بين ساعة القائه وساعة الاستعداد له ليلة على الاقل . واستجمام الفكر خلال الساعات الاخيرة التى تسبق المحاضرة وأن لايكثر من استعمال المفكرات بل يقتصر على قيد التقاسيم الكبرى والتواريخ وأن يحفظ حق الحفظ الاسماء الخاصة التى ترد فى الكلام وأن يعود المرء نفسه النطق بالصعب من الحروف ومعناة المخارج المختلفة من اللسان وأن يتفنن الخطيب فى الجمل التى لا مناص له من استعمالها وهى من لوازم أكثر الناس فيجتهد أن ينوعها ويكثر من الأساليب التى هى بمعنى واحد وبألفاظ متباينة وأن يبدأ الخطيب خطابه أبداً ببطء بل بانخفاض ثم يتدرج فى رفع صوته . فكل خطيب يبدأ كلامه بصوت جهورى يوشك أن يختمه وقد أبح صوته وانخفض ويجب أن يعرض فكره بدون أن يثور غضبه فان الغضب ليس من الصحة فى شىء وبه يبح الصوت . وينبغى له أيضاً أن يحدق بصره فيمن ينصتون اليه وأن لايشغل نفسه بقراءة شواهد أو التقليل منها ما أمكن

والمحركات فى الخطيب مكانة ولكن الأكثار منها لايحتمل والأحسن أن يذهب الخطيب مع الطبع واذا قوطع الخطيب فعليه أن ينتظر ريثما يعود السكون الى المجلس وعلى الخطيب أن يلاحظ تتمة سلسلة كلامه قبل أن يعد

جوابا على البديهة . والجواب السديد هو على الغالب من جودة الذاكرة وعليه اذا خانته لفظة ان لا يضيع وقته أصلا فى البحث عنها فاللحن والخطأ أفضل من الوقوف فى الالقاء واياك أن تضيع فرصة أسماع موسيقار حاذق فى صناعة الكلام أى خطيب مصقع وفر من المدندنين فرارك من الوباء

هذا ما قاله المؤلف موريس آجام وكتابه على عملى معاوهاك الآن خلاصات لفقناها من كتاب آخر فى هذا الفن وهو عملى محض واسم مؤلفه سيلفن روديس(١) واسم كتابه الخطيب الحديث توخى فيه تعليم الخطابة فى الجملة لمن لا يستغنى عنها من الناس قال : أما النبوغ فيها فلا بد له من هبة الهية . ولكن بالتعلم لاسلوب الخطابة يستطيع من يدخل المجتمع ويشترك فى بعض الجمعيات الخيريه ونقابات العملة والمعلمين والأندية والمجامع المختلفة أن يخطب على أسلوب حسن ولا يخجل من التعبير عما فى فؤاده وان على المرأ أن لا يلقى بنفسه فى ميدان الخطاب العام اذا كان موضوعه لم ينضج أو تافها فالاولى قبل كل شىء دراسة الموضوع للخوض فى عباب الكلام الذى تكثر مناحيه والاسباب الملجئة اليه اليوم بعد اليوم

وخير ذريعة للمرء حتى لا يخونه الكلام ان يستظهر كثيراً من المفردات حتى اذا نسى لفظة أقام غيرها مكانها من دون أن يتوقف فقد كان الشاعر تيوفيل غوتيه يقرأ كل يوم صفحة من المعجم ولا يبعد أن يكون شأن الشاعرين بالزاك وبودلير والكاتب فلوبر على هذا النحو لما علم من تمكنهم من أساليب اللغة ومصادرها فكانوا يتصفحون أيضاً هذه الكتب الضخمة التى جمعت نبوغ عنصر باجمعه وبدت بها مظاهر مدنيته المنوعة على اختلاف العصور . وأرى أن من المفيد التطريس على آثار أولئك الكتاب وأن يقرأ المرء كل يوم صفحة من معجم اللغة وكم من لفظ تذكر به صاحب الفكر عالماً وروايات وتواريخ وصفحة من الطبيعة وبلاداً وعصراً . ثم ان الالفاظ وحدها لا تكفى لأكثار مادة الخطيب ولا بد له من القوالب فعليه أن يحفظ جملا مأثورة لطيفة تعلمه أساليب البلغاء

(١) كتاب الخطيب الجديد Silvain Roudès : L'orateur moderne
أو التربية على الكلام أو فن تعلم الكلام فى الجمهور لسلفن رودس

وتركيب الجمل على مختلف الصور ولا يبالغ فى الأستشهاد بها فانه بذلك يضيع شخصيته ويكون ناقلا كلام غيره فقط . وعليه أن يركب لنفسه جملا يمكنه أن قولها ويلفظ بها بصوت جهورى كل يوم من ١٥ الى ٣٠ دقيقة ونجاحه مؤكد لا محالة

تعلم الارتجال هو غاية الغايات التى يجب على مريد الخطابة أن يحاول بلوغها واليك ما عساه يهيء لك الطريق الى ذلك : افرض انك بما لقفته سابقاً من المعارف قد استعددت لأن تكتب بعض الشيء خطاباً لك على الورق فاترك الآن عادة تقييد فكرك فى الكاغد وفكر فى موضوع لك مدة ساعة أو ساعتين وذلك بينا أنت سائر أو راكب فى حافلة أو منصرف الى عملك البدوى ان كنت ممن يتعاطون صناعة بيدك أو بينا تكون فى مكتبك فالخطب سيان . انظر الى جميع النقط التى تعرض لفكرك وأت بالأعتراضات وردها بما لديك من الحجج تنقضها بها وخمر المادة العقلية التى بلغت منزلتها حتى اذا كنت فى دارك بمعزل عن المكدرات وجلبة الخارج اطرد من ذهنك جميع الشواغل الخارجة وخذ نفسك بما تريد أن تأخذه بها واجمع كل قوتك العقلية فى الفكر الذى يأخذ من نفسك بخط وتدبر فيما تريد بضع دقائق واشرع فى التكلم جهاراً جائياً ذاهباً فى غرفتك تكلم على مهلك بدون أن تبحث عن تعابيرك ولا تهتم بحالة جملك ولا لصحتها من النحو والصرف وداوم بدون انقطاع ودع كلماتك تتساقط منك ولكن بان تصل بينها ما أمكن اتصالا جيداً أو رديئاً فتقارب بينها وتكرر وتتشوش الافكار فالقطع على هذا الضرب من الكلام تنتهى فى الدمدمة أو لا تنتهى ابداً وأنت لا يأخذنك قلق من ذلك بل ظل مثابراً أيضاً ونخط العوائق واطرح وراءك الفقرات التى لم تتلطف فى رصفها ولا تبتئس أبداً لما لا تذكره حافظتك ولا لما يتخلل كلامك من المنافذ أو لضعف حججك وتفاهة براهينك وثابر ثم ثابر واذهب الى ادراجك لا تلوى على شيء وارفع صوتك حتى ينخفض ويخونك بطبعه

وإياك أن تحبط اذا لحظت ان النتيجة التى تحصل عليها حقيرة فان هذا الجهد الذى يبدو لك هزواً بانحلال السياق والسباق بين أجزائه ربما عبث بنشاطك

وخيب من أملك فليس هو من العبث بالدرجة التى تتصورها بادىء الرأى لاجرم أن مثل هذه التجربة لتربية ملكة الخطابة لا تنتج شيئاً اذا اقتصر عليها . ومهما بلغت من الثبات فى الخطة التى اختطتها لنفسك ورزقت من الصبر لتجديدها على الدوام فانك تصلح منطقك بالتدريج والكلام الذى تدعوه يأتيك هفواً اكثر من قبل ولا تستعصى عليك الجمل وتلين مادة الكلام وتتلاحم أجزاؤه على أسلوب حسن وتنجلى الافكار فتنال كل مرة نتيجة تحمد غب سراها فتصل بعد بفضل الثبات والصبر الى ما تريد بلوغه من مراقى الكمال وإياك اذ ذاك أن تقنع بغير سلطة الارادات العالية . لايكفى السهولة فى المنطق بدون ارتجال فكثرة مادة الكلام حسن ولكن الواجب تنظيمه وتخطيط الطريق الذى يجب عليه سيره حتى لا يضل فى تافهات لا منفذ لها : ان تعيين الخطة ضرورية فى انشاء خطاب مكتوب وهو ضرورى أكثر عند ارادة الارتجال . ان القريحه المخيلة والمنطق فى الخطيب التى تظهر بانها منبعثة من ذهنه هى ثمرة التدريب والنظام العلمى بادىء بدء وبدونه لا رباط ولاسياق

ثم شبه الخطيب بالممثل فى حركاته ولكن تمثيلا حسناً بحسن استعمال حركاته وسكناته لا تأخذه رهبة ولا جزع : قال والاحسن أن يعمد من يجب التبريز فى هذا الفن أن يتمرن أمام أصحابه ويقوم بينهم خطيباً كما لوكان بين غرباء وهم يدلونه على نقصه ويبينون له عوراته وبصحة الارادة وفضل الانتباه يتوصل المرء الى مايريد حتى اذاحصلت له أنسة بالكلام يشرع فى خطابه ببطء والمستمعون لا يستمعون له بكليتهم أولا بل أن لهم من أحواله أعظم جاذب . وعلى الخطيب أن يلاحظ وسط القاعة التى يخطب فيها أو آخر الحضور يحدق النظر فيهم ليدلهم بلسان حاله انه يعنى بأسماعهم واقناعهم

هذا محصل ما اخترناه من الكتابين فى الخطابة عند الفرنسيس وهم من الامم المشهورة بفصحائها وخطبائها فالسياسى الخطيب منهم هوالذى يتسلط على النواب ببيانه ويتولى الوزارات والسفارات وكلما برز فى هذا الفن استجاش أنصاراً وأحرز سمعة على وجه الدهر والخطيب بين العلماء هو الذى يستولى كل الاستيلاء على المجامع العلمية والكليات ويكهرب الشعب باقواله . ويكثر أشياعه وأعوانه .

# أصل المعتزلة[1]

من العادة ان كل فرقة أو أهل مذهب اذا أرادت أن تصف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها ، وربما نسبت اليها مالم تقله ، اعتقاداً منها بان تنفير الناس عن المخالف والدعوة الى المذهب لايتيسران الا بهذه الطريقة الفتة الباردة ، حتى ان بعضهم جوزوا الكذب على المخالف . وما ندرى أى دين سماوي أو مذهب فلسفى يجوز الكذب فى أمثال هذه المسائل .

والمعتزلة ماخلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم ، خصوصاً أيام استحرت المجادلات بينهم وبين الفرق الأخرى من أهل الاسلام ، أيام كانوا ممتعين على عهد أوائل الدولة العباسية بحريتهم الدينية على أصولها ، ولم يلاقوا من أرباب السلطة شدة ولا عناء وقد كثر بحث الغربيين فى العصر الأخير عن المعتزلة ومنشأهم حتى قال بعضهم ان من سوء طالع المسلمين ان ينقرض المعتزلة فانهم كانوا معدلين لامزجة الحكومات وأرباب المذاهب الاخرى ، اذ جروا مع العقل وطبقوا المنقول على المعقول ، ونظروا الى الجوهر أكثر من العرض ، ومن حكم العقل فى أقواله وأفعاله ، يحترمه أحبابه وخصومه على السواء .

ولقد استطلعنا طالع رأى أحد كبار علماء الاسلام[2] فى أمر المعتزلة فأملى علينا الجملة التالية فكانت خلاصة أحوالهم وغاية الغايات فى الافصاح عنهم ، قال دام نفعه : فى أواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الاسلام : أولاها الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التى اعترضت على على بن أبى طالب فى تجويزه التحكيم فى أمر الخلافة وكانت تحكم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلا عمن يسعى فى سفك دماء المسلمين لاجل مأرب دنيوي ومذهبها مبنى على هذه القاعدة ، وكان فى ذلك العصر قد دخلت الناس أفواجاً فى دين الاسلام بسبب الفتوحات العظيمة وأكثرهم ممن لم يتهذب بمكارم أخلاق الدين ، فكان الناس يسمون المتساهل فى الدين . فاسقاً ويجعلونه من المسلمين البتة ، وكان كثير من الناس يصرح بان الامور كانت مقدرة عليهم تخفيفاً عنهم من الملام . وفى خلال

---

(١) نشرت في السنة الثالثة من مجلة المقتبس ( ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م )

(٢) هو العلامة المصلح أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ

ذلك هبت فرقة لهم شدة تمسك بالدين وتحل بآدابه فأنكروا ذلك وصرحوا بان الانسان مختار فى أعماله وان الله تعالى لو أجبر الانسان على عمله لم يؤاخذه عليه ، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق : فالمؤمن من يقوم بجميع شروط الدين ، والكافر الجاحد مطلقاً ، والفاسق من أتى بكبيرة . ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصرى لانه لم يرض بالتصريح بسبب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة

وفى أثناء ذلك ظهرت فرقة هى بالفرقة السياسية أشبه منها بالفرقة الدينية وهى فرقة الشيعة المشايعة لامير المؤمنين على بن أبى طالب . والشيعة حزبان حزب منهم كانوا يقولون انه هو الاحق بالخلافة غير أن عوارض الاحوال أوجبت تأخيره لكثرة أعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون فى الدين أخروه عنها وقسم يقولون انما أخروه لعداوة فى أنفسهم لا رعاية لمصلحة الامة ثم أخذ كل مذهب دوراً من الادوار كما يعلم من التواريخ المفصلة .

واذ كان الخوارج أرباب حرب وضرب وتحمس فى الدين وعبادة ونسك ولم يكن لهم بصيرة فى العلم كانت أمورهم العلمية بسيطة جداً وأكثر ما يقابلون به السيف . أما المعتزلة فكانوا فى أمرهم أرباب تؤدة وتأن واستبصار بما يقتضيه الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بانكار المنكر ولو أفضى الأمر الى سل السيف الا أن ذلك مشروط فيه الامكان . فكان المعتزلة يفيضون الى فريقين العامة والامراء أما الامراء فلما يشترطونه فى الامارة من الشروط التى اذا انتشرت فى أفكار العامة لم يتيسر لامير ان ينطلق فى أمر الامة بما يشاء . وأما العامة فلانهم ينفرون ممن يخرجهم عن الدين بمجرد أتيان المنكرات التى أطلق لهم العنان فيها من طرف خفى أمراء السوء الذين يهمهم ان تكون العامة ممن يعينونهم على مقاصدهم . وكانت هذه الفرقة أعظم الفرق فى المناضلة عن الدين ورد شبه الملحدين ، وكان الجمهور يقولون لا حاجة لنا الى الجدل فان كل من خالفنا استتبناه فان تاب فيها ونعمت والا طهرنا الارض بسفك دمه عليها .

ولم يزل الأمر كذلك حتى أفضت النوبة الى المأمون وكان ممن خالط ناساً منهم وكان لهم دهاء عظيم فى مخالطة الطبقات العالية مع انكماشهم وشدة ورعهم

فتلقف المأمون أفكارهم فقويت فى نفسه فلما أفضت الخلافة اليه بادر الى أعلانها ، وكان مقتضى الحال ان يدعوا الى مذهبهم كما يقتضيه حال كل من أخذ بمذهب . الا أن المأمون للمبدأ والذي كان عليه وهو اطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد منى الواجب ان يطلق العنان لكل الفرق فالتى أخطأت يتيسر اقناعها بالحجة والبرهان والتى معها الحق ينبغى ان تتبع على مامعها منه . فانطلقت فى عصره جميع الفرق وجعل فى داره مجالس للمناظرات بين أرباب الملل والنحل وكان العصر المفرد فى ذلك

ثم لما أفضى الأمر الى من بعده خف اطلاق العنان لهم . غير أنه بقيت من ذلك بقية حتى أفضت النوبة الى المتوكل فقام فى اضطهاد الفرق المخالفة للجمهور لرعاية المشرب العامة وخلاصاً من فرقة اذا قوى أمرها فى مشارق الارض ومغاربها كان فيها الخطر على أمر الخلافة لانها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير. ولم تزل حال المعتزلة بين انخفاض وارتفاع حتى انحطت الامة انحطاطاً زائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يسعى فى ابادتهم بالسيف كما يعلم من التاريخ ولم يبق لهم ملجأ غير اليمن فان فيه تكون حزب ذو عده وعدة يصعب محوه وهم المسمون بالزيدية . فما الزيدية الا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم فى بعض مسائل الامامة ونحوها . ومذهب المعتزلة فى كون الانسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم فانهم ينقلونه على صيغة مستبشعة ينفر منها العوام فضلا عن الخواص فمن ثم وافقهم عليه كثير من علماء أهل السنة كما وافقهم على كثير من مسائلهم الفرعية التى استخرجوها . وكانت هذه الفرقه كثيراً ماتذكر فى التاريخ بأنها معتزلة مع أن المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة فى باقى مسائلهم أشد المخالفة فكان يقع للناظر فى التواريخ اضطراب . وحقيقة الأمر تفهم مما ذكره التاج السبكى فى الطبقات فقد نقل فى ترجمة القفال عن الحافظ ابن عساكر انه قال فى القفال : بلغنى أنه كان مائلا عن الاعتدال قائلا بالاعتزال فى أول أمره ثم رجع الى مذهب الاشعرى . قال السبكى : وهذه فائدة جليلة انفرجت بها كربة عظيمة وحسيكة فى الصدر جسيمة . فان مذاهب تحكى عن هذا الامام فى الاصول لاتصح الا على قواعد المعتزلة وطال ماوقع البحث فى ذلك حتى توهم انه معتزلى

واستند الوهم الى مانقل ان أبا الحسن الصغار قال : سمعت أبا سهل الصعلوكى وسئل عن تفسير الامام أبى بكر القفال فقال : قدسه من وجه ودنه من وجه . أى دنه من جهة نصرة مذهب الاعتزال . والقفال هو أستاذ عصره قرأ عليه الاشعرى علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية وعلل السبكى ذلك بقوله : أعلم

ان هذه الطائفة من أصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد برعوا فى الفقه ولم يكن لهم قدم راسخ فى الكلام وطالعوا على الكبر كتب المعتزلة فاستحسنوا عباراتهم . والمعتزلة هم الذين أحدثوا علم الكلام وكان الاولون ينهون عنه كثيراً الا أن النفوس لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم وألفوا فيه كثيراً وأوهموا اللائمين لهم بأن الكلام المنهى عنه انما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير أن الكتب التى ألفت على طريقة المعتزلة أمتن جداً لما كان فى أصولهم من منع التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وان كل انسان مكلف بقدر ماأداه اليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيد والمطلق .

وهم الذين وسموا أصول الفقه حتى ان أكثر المسائل المذكورة فيه هى من مبتكراتهم غير ان الأصوليين لم يحبوا ان يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن الاصول عصراً فعصراً وأما مايرميهم به خصومهم من أن الاعتزال نشأ من انتشار كتب الفلسفة فهى فرية لأن الاعتزال وقواعده الاصلية نشأت قبل ترجمة كتب الفلسفة المتعلقة بالالهيات بلاخلاف وكثير مما قالوه كمسألة الاختيار المطلق ومسألة خلود العاصى مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم فى الرد عليهم بها بكلام الفلاسفة . وانما كان دأب المعتزلة بمقتضى متانتهم ان يخوضوا فى أى شىء كان من العلوم التى كانت قبل ولن يجروا على مايظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بأنه لاتوجد حقيقة تخالف الدين فكانوا أشد الناس اسراعا للخوض فى الفنون وأكثر المؤلفات المهمة فى العلوم المنوعة ماعدا الفقه يدهم فيها أطول من يدمن يخالفهم اجمالا . والتاريخ يظهر ذلك بأجلى مظاهره . وأما الفقه فانهم أخذوا فيه بما أخذ به غيرهم لاعتقادهم ان الخطب فيه سهل غير أن لهم فى الفقه دقائق غريبة يجدها الانسان فى تضاعيف الكتب هم منشأها وأما الحديث فانهم رأوا كثرة الوضع

وظهر لهم أن التمييز بين الصحيح وغيره يعسر لاسيما ماروى من طرق غيرهم فانهم لايطمئنون اليه لاعتقادهم ان كثيراً من أهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوزون وضع الحديث للمصلحة وشاهدوا فى عصرهم أحاديث وضعت فى حقهم مثل « القدرية مجوس هذه الامة » فنفروا من المحدثين وثلبوهم أشد ثلب ولما كان لهم علم الحديث أهم علوم الدين وهم أشد الناس ولوعاً به ذهبوا الى قاعدة غريبة وهى أن كل حديث لايخالف القرآن وهو قريب من مقاصدالشارع أوكان مما يدل على مكارم الاخلاق سلموا به اجمالا بدون نظر فى رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردوه البتة . ومن هذا نشأ كثرة ماتراه من ذكر الاحاديث فى كتب مثل الجاحظ والزمخشري وغيرهما من أئمة المعتزلة منهم يبحثون عن القول لاعن راويه .

غير أنهم يعتقدون ان من أخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشربهم . وقدوقع فى التواريخ مناقشات كثيرة فى مسألة نحل كثير من المشهورين فى العلم والفضل . والسبب في ذلك ان كثيراً من المتقدمين كانوا لايصرحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعى ان فلاناً منهم ويظهر ذلك لمن راجع كتب مناقب المشهورين على طريقة المتقدمين فانهم كانوا يفيضون فى كل شيء لاعلى طريقة المتأخرين الذين يطوون كل شيء لايوافق مأربهم الخاص ظناً منهم انهم بذلك يحسنون صنعاً وكثيراً مايذكرون منقبة وهى فى الباطن مثلبة وربما كانت موضوعة

مايبلغ العاقل من جاهل  مايبلغ الجاهل من نفسه

هذا ماقاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذاك الامام الكبير . وقدقال المرتضى : وأما ما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعان ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لايدرك بحاسة ، عدلا حكيما ، لايفعل القبيح ولا يريده ، كلف تعريضاً للثواب ، ومسكن من الفعل وأزاح العلة ، ولابد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة ، حيث حسنت ولابد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد أو احياء مندرس أو فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من أهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين

وهو أن الفاسق لايسمى مؤمناً ولا كافراً الا من يقول بالارجاء فانه يخالف فى تفسير الايمان وفى المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولى الصحابة واختلفوا فى عثمان بعد الاحداث التى أحدثها فاكثرهم تولاه وتأوله وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزداد وغيره اه

هـذا ماقاله واحد منهم فى حقيقة ماأجمعوا عليه . واليك ماقاله الشهرستانى صاحب الملل والنحل وهولين منهم قال : والمعتزلة ويسمون أصحاب العـدل والتوحيـد ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب اذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبى عليه السلام القدرية مجوس هذه الامة وكانت الصفانية تعارضهم بالاتفاق على ان الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل تضاد فكيف يطلق لفظ الضدعلى الضد وقد قال النبى عليه السلام القدرية خصماء الله فى القدر . والخصومة فى القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد لن يتصور على مذهب من يقول بالتسليم والتوكل واحالة الاحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم فالذى يعم طائفة المعتزله من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا يعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الألهية . واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق فى محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه فانما وجد فى المحل عرض فقد فنى فى الحال واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معانى قائمة بذاته لكن اختلفوا فى وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفى رؤية الله بالابصار فى دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسما وتحيزاً وانتقالا وزوالا وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً واتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق

مايفعله ثواباً وعقاباً فى الدار الآخرة والرب تعالى منزه أن يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لوخلق العدل كان عادلا واتفقوا على ان الحكيم لا يفعل الا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطف ففى وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلا واتفقوا على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا النمط وعداً ووعيداً واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع . والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكاليف الطاف للبارى تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة واختلفوا فى الامامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وهنا ذكر الشهرستانى مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل «الواصلية» أصحاب أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزال و « الهذيلية » أصحاب أبى الهذيل حمدان بن ابى الهزيل العلاف و « النظامية » أصحاب ابراهيم بن سيار بن هانى النظام و « الحائطية » أصحاب أحمد بن حائط و « الحدثية » أصحاب فضل بن الحدثى و « البشرية » أصحاب بشر بن المعتمر و « المعمرية » أصحاب معمر بن عباد السلمى و « المزدارية » أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار و « الثمامية » أصحاب ثمامة بن اشرس النميرى و « الهشامية » أصحاب هشام بن عمر الفوطى و « الجاحظية » أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ و « الخياطية » أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط و « الجبائية والبهشمية » أصحاب أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى وابنه أبى هاشم عبد السلام .

ومن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وأبو الاسود الدؤلى وعلقمة والاسود وشريح من أصحاب عبد الله بن مسعود والحسن البصرى وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وعبد الله بن

عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه صالحا في أبشع صورة لانه أنكر على بنى أمية سوء سياستهم فى الرعية وواصل بنى عطاء وهو الذى أنفذ أصحابه الى الآفاق وبث دعاته فى البلاد فبعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير وبعث الى خراسان حفص بن سالم وبعث القاسم الى اليمن وبعث أيوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمنية . ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسى يبالغ فى تعظيمه ورثاه وقلما عهدان الخليفة رثى رعية بقوله :

صلى الاله عليك من متوسل ... قبراً مررت به على مران
قبر تضمن مؤمناً متخشعاً ... عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا فى شبهة ... فصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحاً ... أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ومنهم أبو الهذيل العلاف الذى قال فيه المأمون . أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام . ومنهم ابراهيم النظام وهو الذى يقول فيه الجاحظ الاوائل يقولون فى كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحق النظام . وبشر بن المعتمر الهلالى وأبو عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الرحمن بن كيسان الاصم واحمد بن أبى دوداء وثمامة بن الاشرس ومنهم الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل فى حسن السيرة بالعمرين وهما أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفى وابو الفضل جعفر بن حرب . ومنهم ابو جعفر الاسكافى وأبو عبد الله الدباغ وأبو على الجبائى ومنهم ابو العباس الناشىء ومحمد بن عمر الصيمرى والسيرافيان أبو القاسم وأبو عمران وقاضى القضاة عبد الجبار الهمدانى . ومنهم الصاحب بن عباد والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى والجوهرى صاحب الصحاح والشريف المرتضى وأبو بكر الرازى وأبو بكر الدينورى

ومما يؤثر من أخلاق أئمة المعتزلة وورعهم ماقاله الواثق لاحمد بن أبى دؤاد لم تولنى أصحابى أى ( المعتزلة ) القضاء كما تولى غيرهم فقال : ياأمير المؤمنين أن أصحابك يمتنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجهت اليه بعشرة آلاف درهم

فأبى أن يقبلها فذهبت اليه بنفس واستأذنت فأبى أن يأذن لى فدخلت من غير اذن فسل سيفه فى وجهى وقال الآن حل لى قتلك فما تصرفت عنه فكيف أولى القضاء مثله . وروى أن أحد أئمتهم جعفر بن مبشر اضرت به الحاجة حتى كان يقبل القليل من زكاة اخوانه فحضره يوماً بعض التجار فتكلم بحضرته فى خطبة نكاح فأعجب به ذلك التاجر فسأل عنه فأخبر بمسكنته فبعث اليه بخمسمائة دينار فردها فقيل له قد غدرناك فى رد مال السلطان للشبهة وهذا تاجر ماله من كسبه فلا وجه لردك فقال جعفر : أنه استحسن كلامى افترانى ان آخذ على دعائى الى الله تعالى وموعظتى ثمناً لو لم أكن فعلت هذا ثم ابتدأ فى لقبلت . وروى أن بعض السلاطين وصله بعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمل اليه بعض أصحابه بدرهمين من الزكاة فقبل فقيل له فى ذلك فقال : أرباب العشرة أحق بهما منى وأنا أحق بهذين الدرهمين لحاجتى اليهما وقد ساقهما الله الى من غير مسألة وأغنانى بهما عن الشبهة والحرام .

وفى طبقات السبكى : قال ابن الصلاح هذا الماوردى عفا الله عنه يتهم بالاعتزال وقد كنت لا أحقق ذلك عليه واتأول له واعتذر عنه فى كونه يورد فى تفسيره فى الآيات التى يختلف فيها أهل التفسير تفير أهل السنة وتفسير المعتزله غير متعرض لبيان ما هو الحق منهما وأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل ولهذا يورد من أقوال المشتبهة أشياء مثل هذا الايراد حتى وجدته يختار فى بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة ومن ذلك مصيره فى الاعتراف الى أن الله لا يثاثر عبادة الأوثان . قال فى قوله تعالى ( وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الأنس والجن ) وجهان فى جعلنا أحدهما معناه حكمنا بأنهم أعداء والثانى تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها . وتفسيره عظيم الضرر لكونه مشحوناً بتأويلات أهل الباطل تلبيساً وتدليساً على وجه لا يفطن له غير أهل العلم والتحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب الى المعتزله بل يجتهد فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فانه لا يوافقهم فى جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره فى قوله عز وجل ما يأتيهم من ذكر من ربهم يحدث وغير ذلك ويوافقهم فى القدر وهى البلية التى غلبت على البصريين وعيبوا بهما قديماً انتهى .

# أصل الوهابية [1]

لغطت ألسن الناس فى هذه الايام بأصل الوهابية وتاريخهم ومعتقداتهم وتناقضت الروايات وكثرت التخرصات والقوم بين مفرط فى التشيع لهم . ومفرط فى التشنيع عليهم . وود الكثير لو كان فى الايدى ما يستند عليه لاستقراء الحقيقة واستجلاء الغامض من هذا السر وما عاد الى ذلك الا اختلاط المتمسكين بذلك المذهب مع أهل الامصار كالقطر العراقى والمصرى والشامى وغيرها من الاقاليم يتجرون بنتائج بلادهم من سمن وأباعر وشياه وأوبار وجلود تجارة رائدها الصدق فى التعامل مع الكافة مما ضاعف الثقة بهم على تطاول الايام .

وبعد فانى لا أتوخى فى هذه العجاله الالمام بعقائد تلك الطائفة لتأتى صبرة واحدة فان كتبهم المطبوعة أكثرها فى بلاد الهند تتكفل بذلك لمن يروم الاستبقاء . ولا ان أصف بلادهم وأحوالهم وصف مداح متجامل . أو قداح متحامل . بل غاية ما اتطال اليه ذكر طرف من أخبارهم مشفوعة بصحة النقل والناقل لا تبعة تلحقه اذا خلصت منه النية

قال الجبرتي فى تاريخه عجائب الآثار عند حوادث سنة ١٢١٨ هجرية ما نصه وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابي ولغط الناس فى خبره ، واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجياً وكافراً ، وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه ، وأرسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئاً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) نشرت فى المجلد الخامس والعشرين من مجلة المقتطف ( ١٣١٨ — ١٩٠١ )

وصحبه وسلم تسليما كثيراً أما بعد فقدقال الله تعالى ، قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين وقال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . وقال تعالى : وماأتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا . وقال تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أكمل الدين وأتمم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل الينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف وقال تعالى اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون وقال تعالى : وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعو السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون

« والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن . وأخبر فى الحديث الآخر ان أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة قالوا من هى يارسول الله قال من كان على مثل ما انا عليه اليوم وأصحابى

« اذا عرف هذا فمعلوم ماقدعمت به البلوى من حوادث الامور التى أعظمها الاشتراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التى لايقدر عليها إلا رب الارض والسموات وكذلك التقرب اليهم بالنذور . وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد ، وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لاتصلح الا لله . وصرف شىء من انواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ولايقبل من العمل الا ماكان خالصاً كما قال تعالى : فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لايهدى من هو كاذب كفار . فأخبر سبحانه انه لايرضى من الدين الا ما كان خالصاً لوجهه وأخبر ان المشركين يدعون

الملائكة والانبياء والصالحين ليقربوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده واخبر أنه لا يهدى من هو كاذب كفار . وقال تعالى . ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون فأخبر انه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم وذلك ان الشفاعة كلها لله كما قال تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا بأذنه وقال تعالى : يومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم وقال تعالى يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى: ولا يشفعون الا لمن ارتضي وهم من خشيته مشفقون فالشفاعة حق ولا تطلب فى دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وقال تعالى) ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذاً من الظالمين .

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع إلا باذن الله لا يشفع ابتداء بل يأتى فيخر لله ساجداً فيحمد بمحامد يعلمه إياها ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ثم يحد له حداً فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الاولياء والأنبياء

وهذا الذى ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد اجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج منهاجهم . وأما ماحدث من سؤال الأنبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها واسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعياداً وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان . وهو صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدى الى الشرك

فنهى أن يجصص القبر وان يبنى عليه كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر وثبت فيه أيضاً أنه بعث علياً بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره أن لا يدع قبراً

مشرفاً الا سواه ولا تمثالا الا طمسه ولهذا قال غير واحد من العلماء يجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم . فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى ان كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع السلف الصالح من الامة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى ( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ) فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان كما قال تعالى ( لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ) وندعو الناس الى إقامة الصلوات فى الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى ( الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ) فهذا هو الذى نعتقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ما علينا ونعتقد أيضاً أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وأنه لا يزال طائفة من أمته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك انتهى قال الجبرتى بعد إيراد ما تقدم . أقول ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين . وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه إغاثة اللهفان والحافظ المقريزى فى تجريد التوحيد والامام اليوسى فى شرح الكبرى وشرح الحكيم لابن عباد وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك

وجاء فى تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى عند الكلام على الوهابية ما يأتى . فمن اعتقادهم تكفير عموم المسلمين الذين على الكرة الأرضية إلا من اعتقد اعتقادهم . وسموا أنفسهم بالسلف وبالمحمدين ويبغضون ويلعنون جملة من علماء السنة مثل أبى الحسن الأشعرى ويقولون أنهم هم الذين أسسوا قواعد الأدلة

والبراهين فى علم التوحيد ومنه نشأت الفرق والخلاف بين الأمة المحمدية وإلا فقبله كانت الأدلة هى القرآن والحديث لا غير . وأيضاً يكفرون الامام ابن السبكى الشافعي ولكن ما اعلم السبب فى تكفيره دون سائر المصريين . وياليت شعرى ما ذنبه معهم وأظنه لكونه كان يغرى الملوك بابن تيمية وجماعته الحنابلة حتى حبسهم الناصر محمد بن قلاوون فى الاسكندرية كما هو مذكور فى الدرر الكامنة لابن حجر

قال والحاصل ان الوهابين آذوا الأحياء والاموات ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتو البدع ومحوها . ومن محاسنهم انهم أمنوا البلاد التى ملكوها وصار كلها كان تحت حكمهم من هذه البرارى والقفار سلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصاً بين الحرمين الشريفين ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم اخوان أولاد رجل واحد وهذا بسبب قسوتهم فى تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر فى زمان ابن سعود وانتقلت أخلاق العرب من التوحش الى الأنسانيه وتجد فى بعض الاراضى المخصبة هذا بيت عنزى وبجنبه بيت عتبى وبقربه بيت حربى وكلهم يرتعون كأنهم إخوان وبهاتين الدسيستين خدعوا جميع العوام يعنى بمحو البدعة وتأمين الطرقات والسبل خصوصاً بين الحرمين وأحبهم سائر الامم وغفلوا عن باقى عقائدهم . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ومنها

وماالدين الا أن تقام شعائر  وتأمن سبل بيننا وشعاب

فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين ويفهم عقلا من سياستهم انه اذا فقد القاتل والسارق والناهب فأى سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالزراعة والتجارة واقتناء المواشى فى البادية المخصبة للتكسب من البانها وأصوافها وجلودها واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون فكأن المسألة شبيهة بالدورية أى انه متى وجد الامان ارتفع السارق والقاتل

لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الامان ولكن هذا الدور منفك الجهة

« ولولا ما فى الوهابيين من هذه النزغة أعنى تكفير من عداهم لملكوا جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ولكن بسبب هذه النزغة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول وغزاهم أسد الديار المصرية ابراهيم باشا بن محمد على باشا بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨ وملك بلادهم ومحا آثارهم وأبادهم وأسكن عائلة المقرن أى بيت الملك وعائلة بن عبد الوهاب الديار المصرية ( وما رجعوا الى بلادهم الا بعد ان عاد الحجاز الى الدولة العلية ) وهذه الفرقة المعبر عنها بالوهابيين هم اتباع محمد بن عبد الوهاب النجدى ولكنهم فى الحقيقة يسمون أهل الحديث لأنه كان نظيرهم موجوداً فى زمن الدولة العباسية وينكرون المنا كير بالشدة والغلظة مثل الوهابيين ويثورون على الخلفاء بسبب ان الجهاد فى اعتقادهم ركن من أركان الدين أنظر تاريخ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة من سنة ٣٠٠ هجرية وكانوا يسمونهم الحنابلة وأهل الحديث فى ذلك الزمن ويقولون قام الحنابلة وثار الحنابلة وكسر الحنابلة حانات الخمور وأدبو من شربها وكان بينهم وبين العباسيين مقابلات وحروب . ثم ثارت منهم فرق بالمشرق وبجزيرة الأندلس ويسمون الظاهرية وهم أيضاً أهل الحديث وكانوا ينكرون المنا كير مع الغلظة ويثورون على الملوك وأكثرهم يموت بين قتيل وطريد . ثم انه ظهر لهم فرق فى دولة يوسف صلاح الدين وكانوا يسمون أهل الحديث ولهم ثورات وعداوات مع الملوك أيضاً وينكرون المنكر بغلظة وفظاظة وتسلسلوا الى زمن ابن تيمية الحرانى وتلاميذه ابن مفلح وابن القيم وابن عبد الهادي . ثم ظهرت هذه الفرقة التى عمت وطمت فى القرن الثانى عشر ويسمون بالوهابيين نسبة الى محمد بن عبد الوهاب النجدى والا ففى الحقيقة أفعالهم وآثارهم هى أفعال الحنابلة الأقدمين وهى أفعال أهل الحديث فى القرون المتوسطة وأفعال الظاهرية فالمعنى واحد انما يسمون فى كل عصر باسم على اصطلاح أهل ذلك العصر اه »

***

أما ناظم عقد هذه الجماعة وصاحب دعوتها محمد بن عبد الوهاب النجدى الآنف ذكره فقد ورد فى كتاب بنصرة الناقد لأبى الفتح عبد النصير الهندى ثم المدنى نقلا عن محمد بن ناصر الحازمى فى رسالة فتح المنان فى ترجيح الراجح وتزييف الزايف من صلح الاخوان انه محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن احمد بن راشد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن مشرف هذا هو المعروف من نسبه ويذكر أنه من مضر ثم من بنى تميم والله به عليم . أخذ عن أبيه وهم بيت فقه حنابلة ثم حج وقصد المدينة ولقى بها شيخا عالماً من أهل نجد اسمه عبد الله بن ابراهيم قد لقى أبا المواهب البعلى الدمشقى وأخذ عنه وانتقل مع أبيه الى حريملا من نجد أيضاً ولما مات أبوه رجع الى العينية وأراد نشر الدعوة فرضى أهل العينية بذلك ثم جرج عنها بسبب الى الدرعية وأطاعه أميرها محمد ابن سعود من آل مقرن . ويذكر انهم من بنى حنيفة ثم من ربيعة والله أعلم . وهذا فى حدود سنة تسع وخمسين بعد المائة وألف وانتشرت دعوته فى نجد وشرق بلاد العرب الى عمان ولم يخرج عنها الى الحجاز واليمن الا فى حدود المأتين والألف وتوفى سنة ست بعد المأتين والألف اه

وقال أيضاً هو رجل عالم متبع الغالب عليه فى نفسه الاتباع . ورسائله معروفة وفيها المقبول والمردود واشهر ما ينكر عليه خصلتان كبيرتان . الاولى تكفير أهل الارض بمجرد تلقيات لا دليل عليها . والثانية الاجتراء على سفك الدم المعصوم بلا حجة واقامة برهان . وتتبع هذه جزئيات وهى حقيرة تغتفر مع صلاح الاصل وصحته والله أعلم . وقد بنى الشيخ محمد المذكور طريقته على اتباع بن تيمية ، وابن القيم فى زعمه وأخذ من اقوالهما اطرافاً بحسب ما وقع له من الاطلاع والاشراف وقد أصاب فى بعض ما نقله وأخطأ فى البعض وساء فهما وأخذ على غير القصد فى بعض وقد أحييت دعوته بعضاً من الشريعة وأماتت كثيراً من الباطل فى نجد والحجاز رحمه الله وتجاوز عنه فيما أخطأ فيه وجزاه أحسن ما عمل به انتهى ملخصاً

وكتب العلامة الشوكانى اليمانى فى البدر الطالع فى ترجمة سعود بن العزيز مانصه « فوصل اليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعى الى التوحيد المنكر

على المعتقدين فى الاموات . وقال أيضا فى ترجمة غالب بن ساعد شريف مكة فى بيان اتباع صاحب نجد . وتبلغنا عنهم أخبار الله أعلم بصحتها . من ذلك انه يستحل دم من استغاث بغير الله من نبى أو ولى أو غير ذلك ولا ريب ان كان ذلك عن اعتقاد تأثير المستغاث به كتأثير الله يصير به صاحبه مرتداً كما يقع من كثير من هؤلاء المعتقدين للأموات الذين يسألونهم قضاء حوائجهم ويقولون عليهم زيادة على تعويلهم على الله سبحانه وتعالى ولا ينادون الله جل وعلا الا مقترناً بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب فهذا كفر لاشك فيه ولا شبهة وصاحبه اذا لم يتب كان حلال الدم والمال كسائل المرتدين . وقال وبعض الناس يزعم انه يعنى صاحب نجد يعتقد اعتقاد الخوارج وما أظن ذلك صحيحاً فان صاحب نجد وجميع اتباعه يعملون بما يعلمونه من محمد بن عبد الوهاب وكان حنبليا ثم طلب الحديث بالمدينة المشرفة فعاد الى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخرى الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرابهما وهم من أشد الناس على معتقدى الاموات « وقد رأيت كتاباً من صاحب نجد الذى هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب على بعض أهل العلم وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقده فرأيت جوابه مشتملا على اعتقاد حسن موافق للكتاب والسنة والله أعلم بحقيقة الحال وبلغنا انه وصل الى مكة بعض علماء نجد لقصد المناظرة فناظر علماء مكة بحضرة الشريف فى مسائل تدل على ثبات قدمه وقدم صاحبه فى الدين وفى سنة ١٢١٥ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما الى حضرة مولانا الامام حفظه الله أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها فى الارشاد الى اخلاص التوحيد والتنفير من الشرك الذى يفعله المعتقدون فى القبور وهى رسائل جيدة مشحونة بادلة الكتاب والسنة والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من الفقهاء المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذاكروه فى مسائل متعلقة باصول الدين وبجماعة من الصحابة فأجاب عليها جوابات محررة مقررة محققة تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة . وقد هدم عليهم جميع مابنوه وأبطل جميع مادونوه لانهم مقصرون

متعصبون فصار مافعلوه خزيا عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة وهكذا من تصدر ولم يعرف مقدار نفسه انتهى ملخصاً

وقال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي في كتاب نفح العود في أيام الشريف حمود ومن كتب عبد العزيز بن سعود هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز ابن سعود الى من يراه من أهل الخلاف السليماني خصوصاً أولاد الشريف حمود وناصر ويحيي وسائر اخوانهم وأولاد اخوانهم وكذلك أشراف بني النعمي وكافة أشراف تهامة وفقنا الله واياهم الى سبيل الحق والهداية وجنبنا واياهم طريق الشرك والغواية . وأرشدنا واياهم الى اقتفاء آثار أهل العناية . أما بعد : فالموجب لهذه الرسالة ان الشريف أحمد بن حسين الفلقي قدم الينا فرأى مانحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه فبعد ذلك التمس منا ان نكتب لكم مايزول به الاشتباه فتعرفوا دين الاسلام الذي لايقبل من أحد سواه . فاعلموا رحمكم الله تعالى ان الله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل فهدى به الى الدين الكامل والشرع التام وأعظم ذلك وأكبره وزبدته اخلاص العبادة لله لاشريك له والنهي عن الشرك وذلك هو الذي خلق الله تعالى الخلق لاجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . وقال تعالى : وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واخلاص الدين هو صرف جميع العبادة لله تعالى وحده لاشريك له وذلك أن لا يدعي الا الله ، ولا يستغاث الا بالله ، ولا يذبح الا له ، ولا يخشى ولا يرجى سواه ، ولا يرهب ولا يرغب الا فيما لديه . ولا يتوكل في جميع الامور الا عليه ، وان كل ماهنالك لله تعالى لايصلح شيء منه لملك مقرب ، ولا نبي مرسل ولا شيء غيرهما . وهذا هو بعينه توحيد الالوهية الذي أسس الاسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر وهو معنى شهادة أن لااله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فلما من الله تعالى علينا بمعرفة ذلك وعلمنا انه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس اليه والا فنحن قبل ذلك على ماعليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى من عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم ، والاستعانة منهم والتقرب بالذبح لهم ، وطلب

الحاجات منهم مع ماينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات ، وارتكاب الامور المحرمات . وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه ، وأحيا أثره بعد عفائه ، على يد شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب أحسن الله تعالى اليه فى آخرته والمآب . فأبرز ماهو الحق والصواب من كتاب الله المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الخ

ورسالة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . التى كتبها حين فتح الحرمين الشريفين شاهدة عدل على أنه برىء من تلك الافتراءآت التى أفتروها على عقائده وعقائد أبيه وبنوا عليها تلك الزلازل والقلاقل وان مذهبه عين مذهب الأئمة المحدثين والسلف الصالحين وتلك الرسالة منقولة فى اتحاف النبلاء من شاء الاطلاع عليها فليرجع اليها . قال المستشرق سيديللوا الفرنساوى فى كتابه خلاصة تاريخ العرب مانصه « أخذت العرب من ابتداء القرن الثامن عشر فى الاستقلال بالحكم لقوتها وضعف أعدائها ولم تنقص الا اتخاذ مركز تجتمع حوله جميع الاذهان وترجع اليه فى تدبير الامور فهمت الوهابية سنة ١٧٤٩ ميلادية فاتخذت منها عبدالوهاب مركزاً وهو من قبيلة تميم اشتغل فى صغره بالعلوم المعتادة عند العرب خصوصاً الفقه وسافر الى بغداد والبصرة وبلاد الفرس ثم أخذ يتفكر فيما يثير الحمية فى أبناء وطنه فوجده أحياء الشريعة نقية من جميع البدع كحالتها الاولية فالزمهم المواظبة على العمل بالقرآن ونهاهم عن العلو فى تعظيم النبى ( صلى الله عليه وسلم ) وعن تقديس الاولياء الذين هدم قبورهم وعن تعاطى المسكر وأنكر على الاتراك بعض الاحوال وقال ان الشريعة تقضى أن يخرج كل انسان خمس أمواله ( كذا ) زكاة وتحرم الزينة وتلزم القضاة بتحري الصدق وأخذ يعظمهم بخطب عظم تأثيرها لديهم بموافقتها القرآن ومقصوده من ذلك استمالتهم الى الامور الحربية ليحيوا ما كان لآبائهم من العظمة . وقد كان فان أقوى جميع قبائل نجد وفدت عليه وانتظمت تحت لوائه فجعل محمد بن سعود من قبيلة مصالح قائد هؤلاء الوفود وزوج سعود ابنته وقلده الحكم السياسى على الوهابية لمعرفته بالقوانين العسكرية

وقال أحمد سعيد البغدادى فى كتابه نديم الادب « أما حقيقة هذه الطائفة فانها حنبلية المذهب وجميع ما ذكر المؤرخون عنها من جهة الاعتقاد محرف وفيه

تناقض كلي لمن اطلع عليه بتأمل لان غالب مؤرخي الشرقيين ينقلون عن الكتب الافرنجية فان كان المؤرخ المنقول عنه صاحب دراية وصادق الرواية تجدان من يترجم كتابه يجعل الترجمة على قدر اللفظ فيضيع مزية الاصل . وان كان المؤرخ غير صادق الرواية فمن باب أولى » الى أن قال « ومن أراد أن يعرف جليا اعتقاد هذه الطائفة فليطالع كتب مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فانه مذهبهم

أما بلاد نجد فقد وصفها محمد بن سليم الشهابي المدني في رسالته الرحلة الحجازية « أنها أرض مسطحة سهلة يقل وجود الجبال فيها والمشهور فيها جبلان أجاء وسلمى وانها حسنة الهواء كثيرة الامطار والسيول وفي سفح جبل أجاء مدينة تسمى بندر حائل وهي مسورة ولها ثلاثة أبواب وبيوتها طبقة واحدة والقليل منها طبقتان مرتفعة البناء وفيها محال للقهوة مزينة داخل البيوت على عادة العرب وفيها قصر أميرها والامير ينفذ أحكام القاضي على موجب القرآن الشريف والاحاديث النبوية والاقوال الصحيحة فيقتص من القاتل ويقطع يد السارق ويقيم حد الرجم ولا يوجد في بلاد نجد شاهد زور البتة حتى لو سمع الامير بشاهد زور يجلبه من أقصى نجد ويعزره وينفيه . وفي أوقات الصلاة يطوف مأمور من قبل الامير في الاسواق والشوارع فاذا وجد واحداً لم يحضر صلاة الجماعة يسلبه عمامته ويجره الى المسجد وعند خروج الامير من الصلاة يعرضه عليه فيؤدبه الامير لترك الصلاة مع الجماعة وترى جميع أهل البلد والنازلين فيه متبارين في صلواتهم مع الامام في الجامع وهم في غاية الذكاء والكمال والفصاحة العربية وحديثهم بينهم بالاحسان والتؤدة لا تسمع بينهم لغوا أبداً ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننها فهي عندهم ولقد نزلت بين ظهرانيهم على عهد المرحوم الامير متعب ثلاثة أشهر ثم زرتهم مرتين فاكثر لما رأيت من انسانيتهم فامعنت النظر في أحوالهم فلم أسمع في حائل حاضرة الامير صوت طبل ولا غناء مزمار ماخلا طبل الحرب في وقته . واذا مات أحدهم لا تسمع عويل أهله وعياله سوي حزن وبكاء ويدفنون موتاهم حال وفاتهم ولو مات الميت في الليل وفيها بعض أشجار مثمرة وبنواحيها في سفح جبل اجاء قرية تدعى قفاد ذات عين ثرة تسقي النخيل والزروع وحاضرة أمير حائل تحيط بها من جهاتها الثلاث أرض سهلة ماعدا الجهة الرابعة حيث جبل اجاء الذي

يكثر فيه الربيع مسافة يومين وليلة وهى حمى جعله الامير لخاصته ويربى فيها خيله وهجنه وابله ومواشيه . وفى محيط الحمى قرى رجال الامير وعلى بعد خمسة أيام من الحمى بلدة كبيرة تسمى عنيزة مسورة بسورين سور على نخيل يحيط بها وسور على البلدة وعلى مقربة منها مسيل ماء يجرى فى الغالب وعلى أطرافه نخيل كثير وأكثر سكان البلدة تجار نجد وأعيانها . ويقابلها أيضاً بلدة كبيرة مسورة تسمى بريدة ولها قرى تابعة لها ونخيل كثير تدعى القصيم متصلة بالدرعية ومنها الى مدينة عظيمة تدعى العارض حيث مساكن حكام نجد وأمرائها آل سعود والامير فى كل عام يأخذ من رعاياه الزكاة وفقاً للشرع من خيولهم وابلهم وأغنامهم ومواشيهم ونخيلهم وزروعهم ولا يستثنى من ذلك الا الخيل المعدة للحرب والذى يجيبه من الذكاة على وفق الشرع يجمعه عنده فيفرق بعضه على المحاويج والفقراء ويصرف البقية فى المآدب وعطايا قاصديه حتى لا يبقى على رأس السنة منها شىء

هذا طرف مما عثرت عليه من تضاعيف كتب مطبوعه ومخطوطة لمؤلفين متباينين فى المشارب متفرقين فى المشارق والمغارب أثبته على حاله ولم أمسخ من لفظه ولا ماله . ورأيت وسمعت كثيراً من مؤرخى الفرنجة وسياحهم تكلموا على هذا المذهب ومنهم المنصف والمجحف على ان المجحف منهم يفضل بصدقه أمثال أحمد جودت وعبد الرحمن شرف وأيوب صبرى وغيرهم من المؤرخين الاتراك الذين أطلقوا مباشرة الفاظ والتكفير والتضليل على أبناء هذا المذهب ورموا الكلام على عواهنه واتهموهم فى أمانتهم . ولذا اقتصرت على إيراد ما تقدم وتجافيت عن ترجمة أقوالهم لأنها أمليت بلسان التمويه لا بلسان التاريخ . وعلى ما قيل فى عباراتهم يتصرف ما كتبه أحمد زينى دحلان المكى بعبارات محزنة مخجلة وقد رد عليه علماء الوهابية زاعمين ان الاحاديث التى ساقها فى كتابه موضوعة بعد ظهورهم مطالبين القائل بها ببيان الكتب المأخوذة منها من أسفار المحدثين المتقدمين والمتأخرين مطيلين اللسان على علماء ذاك العصر ناسبين لهم الافتراء على حضرة صاحب الرسالة عمداً ويا ليت هذا المكى بين ما آخذه ليخلص من الطعن فان المقام مقام جدال .

واختلفت الاقوال فى عدد المنتحلين لهذا المذهب فى نجد ويقول شمس

الدين سامى صاحب قاموس الاعلام ان عددهم قد يرقى الى ثلاثة ملايين نسمة فى نجد أما مسافة هذه الكورة فيقطعها الراكب على متون المطايا فى عشرين يوماً عرضاً وثلاثين يوماً طولا وأخبرنى أحد الثقات الاثبات ان دعوة الوهابية تنتشر فى الهند خصوصاً فى الاعوام الاخيرة

***

ويؤخذ مما ذكره حسين بن غنام الاحسائى [1] فى كتابه روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام ، أن الناس فى نجد قبل قيام محمد بن عبد الوهاب كانوا الى الشرك الخفي والظاهر . وقد وصف المقامات التى نذروا لها والشيوخ الذين اعتقدوا فيهم وانتقل الى « بلدان مصر وصعيدها وما فيها من الامور التى ينزه اللسان عن ذكرها وتعديدها خصوصاً عند قبور الصلحاء والعباد من ساداتها وعبيدها بها . »

وذكر ما يفعل من هذا القبيل فى بلدان اليمن وقال ان حلب ودمشق وأقصى الشام والموصل وبلاد الاكراد والعراق وبغداد والبصرة وقرى السلط والقطيف والبحرين وغيرها من بلاد العرب كلها واقعة فى هذا . واستشهد بقصيدة للامير محمد بن اسماعيل الصنعانى وكان مشهوراً بالعلم والفهم قال واصفاً ما سرى من البدع :

طفى الماء من بحر ابتداعا على الورى ... فلم ينج منهم مركب وركاب
وطوفان نوح كان فى الفلك أهله ... فنجاهم والغار قون ثباب
فأنى لنا فلك ينجى وليته ... يطير بنا عما نراه غراب
وأين الى أين المطار وكلما ... على ظهرها يأتيك منه عجاب
ترى الدين مثل الشاة قد وثبت له ... ذآب وما عنه لهن ذهاب
لقد مزقته بعد كل ممزق ... فلم يبق منه جثة وإهاب
وليس اغتراب الدين الا كما ترى ... فهل بعد هذا الاغتراب ايابُ
فياغربة هل يرتجى منه أوبة ... فيجبر من هذا البعاد مصاب
فلم يبق للراجي سلامة دينه ... سوى عزلة فيها الجليس كتاب

(١) من مقالة لنا نشرت في المجلد الثلاثين فى مجلة المقتطف ١٩٠٥ — ١٣٢٢

واستشهد له بقصيدة أخرى قال فيها :

ويعمر أركان الشريعة هادماً ... مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله ... بغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا فى سوحها من عقيرة ... أهلت لغير الله جهراً على عمد

* * *

علام جعلتم أيها الناس دينكم ... لأربعة لاشك فى فضلهم عندى
هموا علماء الدين شرقا ومغربا ... ونورعيون الفضل والحق والزهد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم ... دليلا ولا تقليدهم فى غد يجدى
ولا زعموا حاشاهموا ان قولهم ... دليل فيستهدى به كل مستهدى
بل صرحوا انا نقابل قولهم ... اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

وترجم المؤلف شيخ الاسلام ابن عبد الوهاب بما لم يخرج عما تقدم من ترجمته آنفاً ومما قاله انه كان أكثر لبثه لأخذ العلم بالبصرة وأخذ فى بث الدعوة ثم سكن حريملا مع والده مثابراً على دعوته تاركا ما سلكه علماء السوء فانتظم فى سلكه عصابة اتخذوه جليساً واتبعوا طريقته فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه واشتهر فى بلدان العارض من حريملا والعيينة والدرعية والرياض ومنفوحه وانحاز لدعوته جم غفير وأقام فى حريملا سنين واهتدى به أحد الامراء عثمان بن معمر فى العيينة فاقام بها وساعده الامير على الارشاد فبدأ يعظم أمره ففشا الدين فى بلدان العارض فامر الشيخ الامير بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الاشجار التى كان ينتابها الناس للتبرك وعدلت على السنن المشروعه فانكر عليه ذلك وحكموا بكفره واستحلال دمه وماله وتقول بعضهم عليه ووشوا به الى علماء الاحساء والبصرة والحرمين وافتوا الحكام بانه أقبح الضلال والفساق وأشر الخوارج وحسبوا أنهم اذا حرشوا عليه الحكام يجدون فى قتله فصنفوا المصنفات فى تبديعه وتضليله وقالوا انه مغير السنة والاحكام يقصد تنفير الخواص والعوام ليشاقوا الولاة فيعصوهم . ولما تظاهر الشيخ بالدعوة والناس قد أشربت

محبة المعاصي قلوبهم لم يكفر أولئك العربان وتوقف تورعا حتى تألبوا عليه وكفروه وجماعته ولم يأمر بسفك دم أكثر أهل الاهواء حتى حكموا عليه وأصحابه بالقتل والتكفير . ومع ما كان ينقل اليه من الاذى لم يكترث بهم وكان يتضرع الى مولاه أن يشرح للحق صدورهم ولم يعامل أحداً بالاساءة بعد القدرة عليه ولما وفدوا عليه ومثلوا بين يديه لم يوبخ أحداً منهم وأسدى اليهم معروفه وتجاوز عما فعلوه . فعل به أعداؤه ذلك وأكثرهم معترف أن ماأتى به هو الحق والصواب ولكن خشوا ان تسلب رئاستهم ودنياهم . توفى صاحب الدعوة وله من العمر قريب من اثنين وتسعين سنة كان فى خلالها مستمراً فى تحصيل نافع الزاد وصنف مصنفات كثيرة منها ( كتاب التوحيد ) ورسالة عامة للمسلمين تسمى ( كشف الشبهات ) جواباً لشبههم التى أدلوا بها فيها خلاصة دعوته ، ولباب علمه وكتب رسائل كثيرة فى حث مجاوريه على الاخذ بما ارتآه والرد على خصومه قال من جملة جواب له ان تعليق التمائم من الشرك وكتب الطلاسم فى الحجب هى من السحر والسحر يكفر صاحبه وان من دعا نبياً أو صحابياً أو ولياً مثل أن يقول ياسيدى فلان انصرنى وأغثنى كافر بالاجماع . وأنكر التذكير وقال انه من البدع وذكر السيوطى فى الاوائل ان أول ماحدث التذكير يوم الجمعة ليتهيأ الناس بصلاتها بعد السبعمائة فى زمن الناصر بن قلاوون .

قال المؤرخ والسبب الذى دعا ابن عبد الوهاب الى الخروج من بلده العينية بعد ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان امرأة من أهل تلك البلدة عرفت بسوء فاقرت على نفسها وتكرر ذلك منها فأعرض الشيخ عنها ثم أقرت وعادت الى الاقرار مراراً فسأل عن عقلها فأخبر بتمامه وصحته فأمهلها أياماً رجاء ان ترجع عن الاقرار الى الانكار . فأقرت أربع مرات فأمر برجمها فشدت عليها ثيابها لترجم بالحجارة على الوجه المشروع فخرج الامير عثمان وجماعة فرجموها حتى ماتت فلما طار هذا الخبر كثر لغط أهل البدع وطارت قلوبهم شعاعا فلما أعياهم رد ماقاله من تلك المسائل عدلوا الى ردها بالمكر والحيلة فشكوه الى شيخهم فاغروه به فطلب الى الامير عثمان يأمره بقتله أو اجلائه عن وطنه فأمر هذا الامير الشيخ بالخروج فجاء الدرعية فلما سمع الامير محمد بن سعود بقدومه أسرع اليه مسلما عليه فلطف

منه محله وأخبره بان يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وطلب الى الشيخ أن لا يرحل عن بلده وكان هـذا الامير معروفاً فى جاهليته بحسن السيرة فعاهده الشيخ على عدم الخروج وقام يدعو الناس الى التوحيـد وآزره وزراء الامير وأعوانه واخوانه من أهل الدرعية وذلك فى حدود سـنة ١١٥٧ هـ وبقى الشيخ سنتين يناصح الناس وهاجر الى الدرعيـة خلق كثير بينهم زمرة من أهـل البيوتات وسنة ١٢٠٦ هـ توفى الشيخ محمد بن عبـد الوهاب وحاله من العبادة فى الصلاة والصيام مشهورة يتلو القرآن أبدا ويحيى غالب الليـل بالقيام والتأنى فى تنفيذ الاحكام من كتب الأئمة الاربعـة المقلدة وكان يجبى اليـه المال من جميع بلدان المسلمين فيتفرقه عليهم فى طريقة من الزهد مرضية وكان متكففاً من ذلك المال لا يأكل منـه الا بالمعروف وكان سمحاً كريماً لا يرد سائلا ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهما وكان عليه دين كثير وفى عنه .

وذكر ابن غنام فى تاريخه أيضاً غزوات أتباع ابن عبدالوهاب مع من جاورهم من القبائل والبـلدان وكلها دائرة على بث دعوة واحتياز مغنم ومقابلة شر بمثله أخبار متشابهة كان يجرى مثلها فى تلك الاصقاع . ويظهر للمتأمل ان معظم تلك الحروب التى جرت على عهد ابن عبد الوهاب كانت للدين فلما مات عادت المطامع الى مجراها السابق . والغالب ان الامير النجدي وابنه الذين عملا بمشورة الشيخ طول حياته قاما ببث دعوته بين الامراء المجاورين بعد ان أشـتدت شكيمتهما .

ومن طالع هذا التاريخ وعرف حال الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يلبث أن يقع فى ذهنه ان كل تاريخ هذه الطائفة قتل وقتال وقيـل وقال . نعم ان الامر على مايقول فقد ذكر لى أحـد عقلاء النجديين يوماً مامعناه : يعاب على قومنا شيئان مهان أحدهما الفتن التى مافتئت يثور ثائرها بين أظهرنا والدماء التى تهراق من رفيعنا ووضيعنا وان تكن غارات اليوم بين ابن سعود وابن الرشـيد مثلا ليست كغارات أمس ( تفرد السلطان عبـد العزيز بن سعود منذ بضع سنين بحكم نجد كلها ) المذكورة فى تاريخ ابن غنام فان تلك كانت لنشر كلمة التوحيـد بين أولئك الاعراب الجفاة وهـذه تدعو اليها المطامع — وثانيهما انقسام الناس فى نجد الى قبيلين قبيل يقال له الحضيرية وآخر يقال له قبيلية أوشـيوخ فالاول فى

حل من تعاطى الصناعات كلها والثانى لا يجوز له تعاطيها لان ذلك يعد شيناً عليهم وعرة فى وجوه انسابهم فيقتصرون على التجارة والفلاحة . واذا تعاطى أحد الشيوخ وبعبارة ثانية الاشراف صناعة ما ، وكان فى الاصل شريفاً يسقط عندهم شرفه ويعسى معدوداً من الطبقة النازلة طبقة الصناع والاجراء فى بلاده طبقة الخضيرية . واذا تزوج أحد الشيوخ من بنى خضير أى صاحب الشرف من فاقده وكان للشريف عصبة يستحلون قتله مدعين انه أسقط شرفهم . قلت له وأنا أعيب عليكم أمراً ثالثاً ولطالما ذاكرتكم به وهو جمودكم على حالة واحدة فى العلم وتحريمكم مطالعة كتب لاتخلو مطالعتها من أنارة عقولكم ووقوفكم عند حد البحث فى الدين دون الالتفات الى مالابد منه من علوم الدنيا . وما يخيل الى الا أن رجالكم الذين يأتون الامصار عارفون ماتمس اليه حاجة بنى نحلتهم من العلوم والصنائع وما ينقصهم من المتممات التى لاأثر لها فى باديتكم . اما انقسام الناس فى نجد الى فئتين فليس بالامر الجديد فان الرومان كانوا كذلك بل كان أشراف أسلافكم العرب الخلص يرون الصنائع مضيعة لشرفهم ويعتدون فى الغزو والغارة شرفهم الوحيد .

هذا ما لقفناه من تاريخ الاحسائى فى أتباع محمد بن عبدالوهاب وهم الحنابلة بعينهم وما ابن عبد الوهاب الا داعية هداهم من الضلال . وساقهم الى الدين السمح واذا بدت شدة من بعضهم فهى ناشئة من نشأة البادية ، وقلما رأينا شعباً من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة أما الغزوات التى يغزونها فهى سياسية محضة ومذهبهم برىء منها وما يتهمهم به أعداؤهم زور لاأصل له والله أعلم .

# دولة الادب فى حلب[1]

## على عهد سيف الدولة بن حمدان

لكل قرن من قرون العز فى العرب نابغة أو نوابغ من الملوك والامراء ، ومثلهم من العلماء والادباء ، وقد امتاز القرن الرابع فى الشام — واذا قلنا الشام عنينا هذا القطر المحبوب الممتد من العريش الى الفرات ومن جبال طورس الى البادية على نحو ما كان يعرفه العرب — بقيام بنى حمدان فيه ، ورئيسهم سيف الدولة ابن حمدان استولى على القسم الشمالى منه ، والدولة العباسية قد أخذت تتناوشها ملوك الاطراف ، وأمراؤها فى العراق ومصر والشام والجزيرة ، وأخذت دولة الخلافة بالضعف بصنع بعض الخوارج ، ومنهم من كان ينازعها السلطة علناً ، ومنهم من كان يشاركها فيها ويخضع لها فى الصورة الظاهرة ، وبنو حمدان كانوا من من هذا النوع الاخير .

أصل بنى حمدان بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم بنو حمدان ابن حمدان كانوا ملوك الموصل والجزيرة وحلب فى أيام المقتفى بالله العباسى ، وأول من ملك منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ، ثم أخوه ابراهيم بن حمدان ، ثم أخوه سعيد ونصر ابناء حمدان ، ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة على ابن أبى الهيجاء بن حمدان ، ثم لؤلؤ مولى سعد الدولة بن حمدان ، ثم غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وانتزعه منه فى سنة ٤٠٢ هـ

كان للقبائل سلطان فى هذه الديار ، وأى سلطان ، لان البادية خلقوا رجال حرب وغزو أكثر من الحضر ، لذلك كان العرب قبل الاسلام بخمسة أو ستة قرون يحكمون هذه الديار أو يغيرون على المعمور منها ، أو ينزلون فى صقع معين منها فيبنون المصانع ويفتنون كما يفتنى أهل الحضر ويعيشون عيشهم ، ومن هؤلاء العرب من كان لهم قبل الهجرة وبعدها مدنية رائعة مثل النبطين فى الجنوب وهم

---

(١) محاضرة القيناها فى نادي الشهباء بحلب يوم ٢٣ شباط ( فبراير ) ١٩٢٣

عرب تعزى اليهم آثار البتراء أو وادى موسى وآثار جرش فى عجلون ومثل الغسانيين فى حوران والصفا واللجاة ودمشق وحمص وغيرها ، ومثل التنوخيين فى ارجاء حلب ومثل بنى لخم وجذام ، وكلب ، وكلاب ، وتميم وطى ، وسليم ، وعاملة ، والضجاعم وغيرها من قبائل العرب التى نزلت الشام فكانت عرضة كل حين لاستيلاء البادية عليها لان أهلها أشد مراساً وأجرأ على القتال يوم النزال ، ولان سلاح المدن والبوادى كان واحداً اذ ذاك ، وهذا ما حدا بدولة الرومان لما أضافت هذه الديار الى مملكتها ان تنشىء على سيف البادية مخافر كثيرة ليأمن المعمور عيث البادية ، ومن جملة الدواعى الى استيلاء الحمدانيين على حلب طمع العرب فيها وغزوهم لها المرة بعد المرة ، ففى سنة ٢٩٢ هـ ولى المكتفى أبا الحسن ذكا بن عبدالله الاعور حلب ودام بها الى سنة ٣٠٢ فعاثت بنو تميم فى أيامه فى حلب وأفسدت فساداً عظيما وحاصروا ذكا بحلب فكتب المقتدر الى الحسين بن حمدان فى انجاد ذكا بحلب فأسرى من الرحبة حتى أناخ عليهم بخناصرة وأسر منهم جماعة ، وقامت على الحسين بن حمدان العرب من كلب واليمن والنمر وأسد وغيرهم فاجتمعوا بنواحى حلب فخرج للقائهم سنة ٢٩٤ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب

تبعت الشام مصر فى حكومتها سنة ٣٢٥ فأقام محمد لاخشيد والياً على حلب احمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب فكثر الكلابيون اذا ذاك واقطع الخليفة العباسى الشام لمحمد بن رائق على ان يستخلصه من الاخشيدية الذين خلعوا طاعته فطرد ابن رائق وقاتل الاخشيدية فأستولى على دمشق .

وفى سنة ٣٢٩ بعث محمد الاخشيد قائده كافوراً إلى الشام فى جيش عظيم فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وفى السنة التالية عقد الصلح بين محمد الاخشيد واستأثر هذا بولاية حلب ، والاخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والاعمال الحجازية كانت له سياسة حسنة مع جميع رعاياه أى أنه كان بارعا بما نسميه اليوم ( سياسة العناصر ) فقد كتب الى ارمانوس ملك الروم من كتاب : « وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمتها وسعتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه ايانا كما كتبت الينا وصح عندك من حسن السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعية ويجمعهم

على الطاعة واجتماع الكلمة ويوسعها الامن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة »

وفى سنة ٣٢٩ وصل الروم الى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف انسان ، وفى هذه السنة أيضاً قتل ابن رائق قتله ناصر الدولة بن حمدان وكتب بالامر الى الخليفة المتقى لله فجعل ذلك من نفسه محلا عظيما ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الامراء وتقلد حلب وأعمالها ودانت له العرب ولقب شقيقه عليا سيف الدولة وخلع عليه وهذا هو موضوع كلامنا فى هذه المحاضرة

***

سار سيف الدولة الى حلب سنة ٣٣٣ فحكمها واستولى عليها وكان مع المتقى لله بالرقة ، فلما عاد المتقى الى بغداد وانصرف الاخشيد الى الشام لقى يأنس المؤنسى بحلب فقصده سيف الدولة فلما نازلها فارقها يأنس فحكمها سيف الدولة وهزم الروم لما قاربوها ودخل الاخشيد سنة ٣٣٤ حلب وافسد أصحابه فى جميع النواحى فقطعت الاشجار التى كانت فى ظاهر حلب وكانت عظيمة جداً ( وقيل ان حلب كانت من أعظم المدن شجراً وأشعار الصنوبرى تدل على ذلك ) ونزل عساكر الاخشيد على الناس بحلب وبالغوا فى أذى السكان لميلهم الى سيف الدولة

مال الناس هنا الى سيف الدولة لما اشتهر عنه من الشجاعة والكرم ومال أهل دمشق عنه فطردوه عن بلدهم لانهم رأوا منه ما أخافهم على أملاكهم ، وذلك أنه لما ملك دمشق اتفق — وهو مقيم بها — انه كان يسير هو والشريف العقيلى بنواحى دمشق فقال سيف الدولة : « ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد » فقال له العقيلى ، هى لاقوام كثيرة ، فقال سيف الدولة : « لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرؤا منها » فأعلم العقيلى أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافوراً يستدعونه من الاخشيدية فجاءهم وأخرجوا سيف الدولة عنهم وظل ملك الحمدانيين مقصوراً فى الشام على شماله ودخلت فيه حماة ، وحمص ، وسلمية ، وجوسية ، وشيزر ، وكفر طاب وأفامية ، ومعرة النعمان ، وجبل السماق ومعرة مصرين ، والاثارب

***

رسخت بسيف الدولة اقدام بنى حمدان فى هذه الديار واتخذ حلب عاصمته وكانت مملكته عبارة عن جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية والجزرية

وديار مصر وديار بكر ، ولما تم له الامر مثل فى بلاده الصورة التى كان يريد ان يمثلها فى دمشق وأبى أهلها عليه تمثيلها فاخذ يستصفى الاملاك ويصادر الاموال ويبنى الدور والقصور ويظهر من الابهه ما كان يعجز عنه الخوالف من العباسيين فى بغداد ، والامويين فى الاندلس والفاطميين فى مصر

* * *

لم تكن الجباية فى تلك القرون على حالة مستقرة ، فما ورد عن الشارع وأصحابه من قوانينها العادله السهلة التطبيق كان يجرى العمل به فى البلاد كلها ، وكانت صورة التنفيذ تختلف باختلاف نزاهة السلطان وعفته عن أموال الناس ، وسيف الدولة كان على الارجح من القائلين بان الغاية تبرر الواسطة

كان رحمه الله على ما أجمع عليه الثقات مثل ابن حوقل معاصره والازدى ، وسبط ابن الجوزى ، يجوز اخذ ما فى أيدى الناس ليستعين به على غزو الروم ، ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والادباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه فى وجوه المبرات والعطايا ، ولذلك أسس فى هذه المدينة الجميلة دولة فى الادب لم يقم مثلها فى الشام منذ نحو عشرين قرناً الى يوم الناس هذا

ليس العالم شر محض ، ولا خير محض ، ولكل عاقل فى الارض مزية كما ان له ما يعد عليه من الهنات ، وسيف الدولة من هذا القبيل لم تكن أعماله الى الخير لمحض بمصادراته وإسرافه ، وكانت له مزيتان قل أن يكتبا لغيره وهما : نهضة الآداب فى هذه البلاد ، ودفع عادية الروم عنها ولولاه لعاد اليها سلطانهم بعد أن تقلص بالاسلام نيفاً وثلاثة قرون . وهذا الاجمال كما ترون يحتاج الى تفصيل

كان هم سيف الدولة فى سياسته الخارجية أن يضعف الروم فى آسيا الصغرى فكان كثيراً ما يغزوهم ويفتح حصونهم ويسبى من أبنائهم ويخرب فى زرعهم وقراهم ويستصفى أموالهم وعروضهم ، وقيل أنه غزاهم أربعين مرة كانت فيها بعض الغزوات له وبعضها عليه وكان همه فى سياسته الداخلية تنجيد القصور وجمع الاموال والتجوز فى أخذ الحلال والحرام منها ، واظهار أبهة الملك ، والافضال على الشعراء وكانت عصبيته من عرب الجزيرة مسقط رأسه ومنبعث دولته .

ومن عرب الشام مثل بنى كلاب الذين أدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم . قال فى مسالك الابصار : وبنو كلاب هم عرب أطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد . ولا تزال ( أى فى القرن الثامن ) تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم . ويتكلمون بالتركية ويركبون الاكاديش وهم عرب غزو . ورجال حروب وأبطال جيوش . وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً .

قل فى أيام سيف الدولة غزو الروم لمدينة حلب . وكانوا يغزونها السنة بعد الاخرى ويعيثون في ارباضها وقراها ويحرقون ويخربون ويسبون دع غزوتهم لها سنة ٣٥١ أيام استولوا عليها دون قلعتها ولم يعلم سيف الدولة بالخبر فخرج اليهم فيمن معه فقاتلهم فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد فانهزم سيف الدولة فى نفر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب وتسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة ( والبدرة كيس فيه ألف أوعشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار من الدراهم ويبلغ مجموعه نحو مليونى دينار باصطلاحنا اليوم ) وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى وأخذ الجميع وخرب الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها . فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها . فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل الجوشن . ثم ان رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم ليمنعوها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فدخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا الفتك حتى تعبوا وضجروا وكان فى حلب الف واربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبى وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة . فلما لم يبق من الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقى واحراق المساجد . قال ابن الاثير ، وكان عدد عسكره مائتى الف رجل منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن ( الدروع ) وثلاثون الفا للهدم واصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل

يحمل الحديد . وكانت هذه الموقعة بسفح ( بالقوسا ) فاحرقوا جامعها

بيد ان هذه الواقعة وأمثالها لم تثن من همة سيف الدولة فظل على غزو الروم ليكف عاديتهم عن هذه الديار ، وكانت له طرق غريبة فى الرحمة من ذلك انه سار مرة بالبطارقة الذين فى أسره الى الفداء وكان فى أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة من أكابر الحلبيين والحمصيين فاخذ بالفداء ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نفد ما معه من المال فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنته ( درعه ) الجوهر المعدومة المثل ، ثم لما لم يبق أحد من أسري المسلمين كاتب فقفور ملك الروم على الصلح ، قال ابن الوردى : وهذه من محاسن سيف الدولة

ولقد امتازت دولة سيف الدولة بمزيتين الاولى سياسية اسلامية ، والثانية علمية أدبية ، فمزيتها السياسية انه كثيراً ما أغار على الروم وجعل ديدنه التخريب فى بلادهم ليردهم عن قصد بلاده لانهم كانوا يطمعون فيها منذ القديم ويذكرون من تاريخها انهم حكموها طويلا ، فكان بعمله سداً حاجزاً دون انبعاثهم الى هذه البلاد نخدم بذلك الاسلام والعرب ، والمزية الثانية لدولته جعلها كحضرة بنى العباس على ضيق رقعتها وذلك فى الافضال على العلم والادب فكان يقصده أهل هذا الشأن فينزلهم فى بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته ، قال فى دائرة المعارف الاسلامية : « ان الفضل الذى احرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية »

ومما يؤخذ عليه تغاليه فى الافضال على الشعراء والادباء ، على ان منهم كأبى الطيب المتنبى مثلا من فارقه بعد ان منعه الاقطاعات والانعامات الكثيرة ليستجدى اكف كافور فى مصر ، فقد اعطى سيف الدولة شاعره المتنبى ضيعة بالمعرة اسمها ( صف ) اقطاعاً له ، واقطع قرية ( عين جارة ) وهى من الضياع الكبرى على ابن احمد بن البازيار نديمه عدا ما كان يناله من صلاته ، وذكروا ان الناشىء الاحصى دخل على سيف الدولة فانشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ وقال له اعذر فما يتأخر حمل المال فاذا بلغك ذلك فاننا نضاعف جائزتك ونحسن اليك فخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تذبح

لها السخال وتطعم لحومها فعاد الى سيف الدولة فانشده هذه الابيات :

رأيت بباب داركم كلابا تغذيها وتطعمها السخالا
فما فى الارض ادبر من أديب يكون الكلب أحسن منه حالا

ثم اتفق ان حملت الى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشىء الشاعر بالأحص فاخذ ما عليه من المال واطلقه ثم جاء حلب ودخل على سيف الدولة وانشده قصيدة يقول له فيها :

ومن ظن ان الرزق يأتى بحيلة فقد كذبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لا ينام عن السرى وآخر يأتى رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة بحياتي وصل اليك المال الذى كان على البغل فقال نعم فقال خذه بجائزتك مباركا لك فيه

ان ما صدر عن سيف الدولة غاية فى الكرم ولكنه لا يجوز فى شرع العقل أن تجبى هذه الاموال من الفقراء والاغنياء لتصرف فى مصالح الامة ثم يأخذها شاعر واحد ومعلوم ان العشرة آلاف دينار فى القرن الرابع لا تقل قيمتها عن مئة ألف دينار فى هذا القرن ولذلك قال ابن نباتة فى مدح سيف الدولة وقد تبرم بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لى بالذها حتى ضجرت بها وكدت من ضجر أثنى على البخل
ان كنت ترغب فى بذل النوال لنا فاخلق لنا رغبة أو لا فلا تنل
لم يبق جودك لى شيئاً أؤمله تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

مثال آخر من اسراف الدولة : ذكر انه ضرب دنانير خاصة للصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، قال بعض المؤرخين فى حوادث سنة ٣٥٤ فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة فزوج ابنته أبا المكارم وأزوج أبا المعالى بابنة ناصر الدولة وازوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، وضرب دنانير فى كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، الحسين ، جبريل ، ( وكان سيف الدولة يرى رأى الشيعة ) وعلى الجانب الآخر : « أمير المؤمنين

المطيع لله الاميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة الاميران أبو تغلب وأبو المكارم ، وجاد بما لم يجد به أحد يقال أن المبلغ الذى جاد به سبعمائة ألف دينار. فما قولكم بمن يجود بهذا المبلغ فى عرس وهو مبلغ جسيم لا تقل قيمته اذا قدرناه بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار ، ان هذا العمل ممقوت شرعاً وعقلا لانه التبذير بعينه

ومما ذكره المؤرخون ان سيف الدولة كان مرة فى بغداد فدخل على جماعة فى مجلس أنسهم فرفعوا منزلته بدون أن يعرفوه وشاركهم فى طربهم ، ولما تقوض المجلس طلب ورقة ودواة وكتب رقعة وتركها وانصرف ، فنظر أصحاب المجلس فى رقعته فاذا هى سفتجة بالف دينار يؤديها وكيله فى دار السلام فلما حملوا اليه خطه سألوه من عساه أن يكون الذى جاد بهذا المبلغ فقال لهم هو سيف الدولة بن حمدان . وكان كثيراً ما يفتقد رجال الدولة فى بغداد ويتعهد بعض علمائها وشعرائها ولكن عطاياه للشعراء أجزل فقد كان يعطى المعلم الثانى أبا النصر الفارابى أربعة دراهم فى اليوم أى القدر الذى يستطيع به فيلسوف الاسلام أن يعيش عيش الكفاف على حين كان يعطى ابن عمه أبا فراس ضيعة تغل الف دينار فى السنة من قرى منبج جائزة عن بيت استجاده ، وأبو فراس هو الذى قال فيه الصاحب ابن عباد : « بدىء الشعر بملك — أى بامرىء القيس — وختم بملك أى بابى فراس »

***

وبهذا رأيتم أن المال لا قيمة له فى نظر سيف الدولة . فقد ذكروا — وهو مما يعاب عليه — ان الخليفة المتقى العباسى لما استولى البريدى على بغداد استنجد ببنى حمدان أمراء الموصل فطلب سيف الدولة من الخليفة مالا لينفقه فى الجيش حتى يقويه ويمنع الاتراك من بغداد فاعطاه الخليفة أربعمائة الف دينار ففرقها سيف الدولة فى أصحابه ثم هرب سيف الدولة ودخل « تورون » بغداد وملكها ومنها ان أبا الحصين على بن عبد الملك الرقى ولى قضاء حلب وكان ظالما فاذا مات انسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال « كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك » ولما مات هذا القاضى رفسه سيف الدولة برجله فيما قيل . وقال له قبحك الله كم

كنت تزين لى الظلم وذكر بن حوقل فى كلامه على بالس « مسكنة » : ان سيف الدولة بعد انصرافه عن لقائه صاحب مصر وقد هلك جميع جنده انفذ المعروف بابى الحصين القاضى فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النفوذ فاخرجهم عن احمال وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام فى دفعتين بينهما شهور قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار . وقال ابن حوقل أيضاً « أن نصيبين لم تزل منذ من أول الاسلام تضمن بمائة ألف دينار الى سنة ٣٦٠ فاكب عليها بنو حمدان بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى ان حمل ذلك بنى حبيب وهو بنو عم بنى حمدان على ان خرجوا بذراريهم ومواشيهم وثقلهم فى اثنى عشر ألف فارس الى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم النظر فى انزالهم على كرائم الضياع ونفائس المتاع فعادوا الى بلد الاسلام على بصيرة بمضاره . وعلم باسباب فساده : وقلوبهم تضطرم حقداً فلحق بهم كثير من المخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلد الاسلام وافتتحوا بعض الحصون وألحقوا أسوار بعضها فى الارض وخربوا الضياع وتزايدت ثقة الروم بهم الى ان جعلوا لهم الارزاق والاعطية وصاروا خاصة الملك وفتحوا له المضايق واطعموه فى أنطاكية والمصيصة وحلب وطرسوس ،

هذا ما ذكره الجغرافى الرحالة بن حوقل فى أعمال سيف الدولة على انه قد وسم كتابه باسمه وقد سكت بعض المؤرخين عن ذكرها بتاتاً وأشار اليها بعضهم بصورة مختصرة قال ابن مسكويه « كان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد برأيه كريماً شجاعاً محبا للفخر والبذخ . مفرطاً فى السخاء والكرم . شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه سعيداً مظفراً فى حروبه جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه .

ومن جملة بذخه أنه كان يقف على مائدته اذا أكل أربعة وعشرون طبيباً . وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم . ولقد قيل انه اجتمع لسيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه ابن نباتة الفارقى ومعلمه بن خالويه ومطربه الفارابى وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان ( وهما يشبهان الاخوين الافرنسيين ليكونكور )

والصنوبرى ومداحه المتنبى والسلامى والوأواء الدمشقى والببغاء والنامى وابن نباتة السعدى وغيرهم بل انه اجتمع ببابه ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وكان أديبا شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز بما يمدح به . ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة وممن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم فى سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الايام ، وربما قل فى الملوك من مدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى أن كلا من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن على بن محمد السميساطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت

وكل هذه الاجادة فى الشعراء وتخريج الرجال كانت منبعثة من وراء اعطاء سيف الدولة للمال بدون حساب ، أجاد شعراء الشام لانهم رزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم كما قال الثعالبي بقية العرب المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم . ومامنهم الا أديب جواد ، يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، وبنو ورقاء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله أبناء ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة ، وكان جعفر من بيت أمرة وتقدم وآداب وكان المقتدر يجريه مجرى بنى حمدان ، وتقلد عدة ولايات وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه عن حفظه وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة

وان بابا يقف فيه أمثال أبى الطيب المتنبى وأبى عبادة البحترى من الذين انتهت اليهم الرئاسة فى هذه الصناعة ومثل النامي والببغاء وكشاجم والصنوبرى وابن خالويه وابن جنى والبازيار والصفيرى والناشىء والبنص والرقى وابن نباتة والفارابى وابن كشكرايا وعيسى الرقى وغيرهم من العلماء والبلغاء والشعراء والندماء أن باباً يقف فيه أمثال هؤلاء هو باب ولاشك عظيم ، وفضل صاحبه على الآداب جسيم

* * *

تجلت فى عهد سيف الدولة فى ديار الشام روح غريبة فى الادب العربى وظهر

بمظهر لم يسبق له عهد مثله . ولا جاء فى القرون التالية شبه له ونظير الهم الا اذا كان على عهد الامويين . ولم تبلغنا أخبار شعرائه . وقد استفاد من هذه الحركة الأدبية القاصى والدانى كان أبو بكر الخورزى فى ريعان عمره قد دوخ بلاد الشام وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب فى مجمع الرواة والشعراء . ومطرح الغرباء والفضلاء فاقام ما أقام بها على أبى عبد الله بن خالويه وأبى الحسن السميساطى وغيرهما من أئمة الادباء . وأبى الطيب المتنبى وابى العباسى النامى وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه وأدب يقتبسه . ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشعار يصيدها . وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر وكان يقول : ما فتق قلبى . وصقل ذهنى وأرهف حد لسانى وبلغ هذا المبلغ بى الا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التى علقت بحفظي وامتزجت باجزاء نفسى

قام سيف الدولة بهذه النهضة الادبية وقد كاد القرن الثالث فى الشام يخلو من الشعراء والادباء لانهم قصدوا بغداد عاصمة الملك وبقيت الشام بمعزل . ولم ينبغ فى هذا العصر غير رجال فى الحديث والمغازى والفقه . وضعف الادب حتى أخذ ابن حمدان بيده وأيدى المشتغلين به فكأن القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذى صدر فى القرن الرابع وشرحه نوابغ الادب العربى أحسن شرح وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام وأبو الطيب وأبو عبادة . واليهم انتهت الزعامة فى الاجادة

بلادنا بلاد الشعر . والشعر كان مبدأ دخول العرب فى الحضارة . لم يحرصوا على شىء حرصهم على روايته ودرايته . وأشد ما يكثر الشعراء فى أرض صح أقليمها . واعتدل نسيمها وطابت تربتها وأديمها . وصفت أمواهها وسنح نميرها ، وكثرت ظلالها باشجارها وغردت أطيارها فى أسحارها وهذه الحالة على حصة موفورة فى القطر الذى يتاخم جزيرة العرب من شمالها فكان شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء العراق وما يجاورها فى الجاهلية والاسلام والسبب فى تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم فى الشعر قربهم — كما قالوا — من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز . وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة السنتهم من الفساد العارض الا لسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم

واذا أضيفت الى هذه الاسباب الطبيعية أسباب أخرى من تنشيط ملك واعجاب أمة بعمل العالم أو الشاعر والكاتب تفتحت القرائح وتجلى نبوغ الافراد فى أجمل مظاهره ، كما جرى فى أيام سيف الدولة الذى يشبه من كثير من الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، هذا مع اعتبار الفرق بين العصرين ، فان ابن القرن التاسع لا يتأتى ان يكون مثل ابن القرن التاسع عشر وابن غربى آسيا لا يصح بحال من الاحوال أن يشبه ابن غربى أوربا ، ولكن الرجال قد يتشابهون على كل حال ووجه الشبه ظاهر بين الملكين ، ولاسيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال فى نمو وعلو ، وعمل سيف الدولة زال — ويالأسف — بزواله ، وهذا أهم فرق بين هذا الشرق وذاك الغرب ، هناك يتسلسل الفكر قروناً ، وهنا ينقطع ويتحول ، هناك تتناوله الجماعات بعد الافراد فتحسنه وتزيد فيه ، وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير تذكاره ، فعاش الشرق بالفرد وعاش الغرب بالجماعة

لو ألهم سيف الدولة ان يقتصد قليلا من جوائز الشعراء فقط ، خل عنك سائر اسرافاته ، ويعمل فيها عملا يكل أمره الى أبقاء الاجيال التى جاءت بعده ، لاثر وحده فى مدنية الشام أكثر من تأثير الرومان واليونان ، ولما نسى اسمه « الا من دواوين الادب واسفار المحاضرات ومن قام أمره بالاستبداد ولم يحفل بآراء أصحاب الرأى تضمحل سلطته عند أول عارض داخلى أو خارجى يعرض لها :

ان سيف الدولة مثل الاستبداد الممزوج بالعقل وحب الادب والشعر لانه كان شاعراً مجيداً ، جيد الطبع ، كريم النفس ، وكانت فائدته الشخصية أقل من فائدة الآداب عامة على يده ، وجعل الشهباء مركز دائرته فأصبحت فى سنين قليلة عاصمة الآداب فاورثنا شعراء سيف الدولة وأورثوه مجداً لا يبلى على وجه الدهر جديده اهـ

# بين دمشق والقاهرة[1]

سادتى الاخوان

يعجز البيان عن توفية صداقتكم حقها ، ومقابلة عواطفكم الجميلة بمثلها، فقد كسوتم وطنيكم هذا حلة تقصر عنها قامته، وظهر احساسكم الشريف فى مظهر انساه ما لقيه من المشاق فى سبيل الوصول الى حماكم، فدمتم ودامت عوارفكم كهفاً يلجأ اليه فى الملمات ، وعلم نور يستضاء به فى الظلمات ، ولقد كنت بيت العزم منذ شهرين أن أزور مصركم فى الشتاء المقبل لالقى من خلفتهم فيها من خلص الاصدقاء مصريين وعثمانيين ، ولكن قضت الاقدار أن أهبط مصر فى صيفها وأهلها يرحلون عنها على ان مصر حلوة فى فصولها الاربعة لان السر فى السكان لا فى المكان كما كنت أود أن أشخص اليها من طريق البحر المطروق فى ست وثلاثين ساعة موفورة لى أسباب الراحة لا أن أوافيها من طريق البر المهجور على مطية اقضى فى السير والسرى من دمشق الى القاهرة أربعة عشر يوماً ، وألقى فيها من فقد الراحة ما يلقاه فى العادة السفار فى القفار

ان ما حملنى على انتيابكم فى هذه الحال تعرفونه باجمعكم وليس ببدع ان ينال مثله كل من يتصدى لطلب الاصلاح وينشد الحق والعدل فى بلاد حكمت قرونا بالاستبداد ولم تكتب لها السلامة منه ، ومن ابتلى بذلك يستطيب الاذى اذا انتج عمله نفعاً للخير العام

قضيت فى الشهر الفائت ثلاثة وعشرين يوما فى زيارة مدينة الرسول وآثار وادى موسى أو البتراء المعروفة بالعربية الصخرية وبلاد مآب أى الكرك وأرض الشراة التى كان يسكنها بنو العباس فى أيام بنى مروان ومنها خرجوا بالدعوة لدولتهم وأرض البلقاء التى كانت مصايف لبنى أمية أيام حكومتهم فى دمشق وغير ذلك من الاقاليم فى أقصى حدود بلاد الشام الجنوبية ومن هذه الاقاليم ما وصل اليه الخط الحجازى ومنها ما يقصد اليه على الدواب ، فلما عدت الى دمشق استريح

(١) وهى محاضرة القيناها فى نزل ادن بلاس (قصر عدن بالقاهرة) على جمهور من السوريين والمصريين

من وعساء السفر فاجأتنى الحكومة المحلية بما عودتنيه أيام الحكم المطلق والحكم المقيد ، من خرق قانون الحرية الشخصية والفكرية ، ومحاولة النيل منى بلا موجب

سميت وطائفة من أصدقائى فى سورية بعد انتشار القانون الاساسى ان يكون فى بلادنا دستور حقيقى يستمتع به العثمانيون على اختلاف عناصرهم ونحلهم ، ولكن الفئة المتغلبة على الحكومة فى الاستانة والمرسلة بصنائعها الى الولايات أبت وخصوصاً بعد سقوط وزارة رجل السياسة العثمانية كامل باشا الا ان يكون الدستور استبداداً في صورة حرية فكنا كلما طالبنا بمطلب من مطالب الاصلاح الطفيف أتهمونا أنواع التهم بل كنا معهم كما قال ابن أبى طالب « كراكب الصعبة ان أشنق لها خرم وان اسلس لها تقحم » فالحكومة بل الحاكم الذى كان يرهقنا زمن الاستبداد ويشردنا على اننا ناقمون على حكومة المخلوع حتى اضطررنا ان انقضى أربع سنين فى هذا القطر فراراً من الحيف عاد فى الدور الذى يدعونه بالحرية يرمينا بالارتجاع ثم بالدعوة لانكلترا ثم بالدعوة لحكومة عربية الى غير ذلك مما يختلقون من ضروب الافتراء الذى لا يستنكف كل ضعيف فى حكومة هذا الشرق التعس من أن يلصقه بمن لا يقدر على حجاجه بالبرهان اذا دله على عيوبه ليتقيها ونصح له بالاعتدال لتطول ايامه ولا تساوره اسقامه

فى مثل هذه الحالة يسارع مثلى الى الهرب من وجه الظلم اذ لا قانون هناك يأخذ للضعيف من القوى وما القانون عندهم الا هوى النفوس ، ولا رواج الا للزور والنفاق ولا عجب فقد قال ابن خلدون ان الدول اذا تنزهت عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، نفق فى سوقها الابريز الخالص ، واللجين المصفى ، وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسماسرة البغى والباطل ، نفق البهرج والزائف

ولذا أرسلنا ساقينا للريح ساعة بلغنا ان الحكومة المحلية فى سورية تريد القبض علينا على نحو ما قبضت على شقيقنا احمد المدير المسؤول لجريدة المقتبس فسرنا ( يوم ١٧ نيسان (ابريل ) ١٩١٢ ) بدون ريث بين حدائق صالحية دمشق حتى بلغنا الزاوية الغربية الشمالية منها فى المكان المعروف بقبة السيار ، ومنها قصدنا الى دمر من طريق الجبل مشياً على القدم ثم انصرفنا من دمر الى المزة بالتصعيد

فى الجبل أيضاً وهناك اختبأنا فى أحدى قرى وادى العجم أياماً حتى تهيأت لنا أسباب الهزيمة على حصان فى صحابة صديق لنا قديم رافقنا من أقصى حدود وادى العجم فمررنا من طريق معوج اختزنا فيه أرض المزة وبلاس والاشرفيه وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب ثم دير المدس والحارة من قرى أقليم الجيدور المعروف عند الافرنج بايتورة حتى بلغنا النقرة من بلاد الجولان التى يسميها الفرنجة غولانيتيد فرقدنا بالقرب من نهر الرقاد وكنا هومنا فى الليلة الفائتة على مقربة من نهر الاعوج المعروف فى الكتب المقدسة باسم فرفر من عمل وادى العجم

وفى الجولان اتصلنا بجماعة من تجار الابل ذاهبين الى مصر فسايرناهم وقطعنا سهول الجولان ومراعيه وبتنا فى الليلة الثالثة دون عقبة فيق ومن الغد هبطنا العقبة وهى لا تقل عن ساعتين وتعد من أعظم عقاب بلاد الشام ومنها يشرف المرء على أراضى الغور غور بيسان وبحيرة طبرية ونهر الشريعة أى الاردن وليس على هذا النهر العظيم سوى جسر قديم متداع وجسر بنات يعقوب فقطعنا الاول سباحة على الدواب ثم توقلنا الجبل الى موقع الدلايكة وهو واد بين جبلين منفرجين متآزيين من عمل طبرية عاصمة الاردن القديمة بل عاصمة الجليل أصبح أكثره ملكا للصهيونيين من مهاجرة الاسرائيليين الاوربيين يستنبتونه ويستثمرونه على طريقتهم المتعارفة فى ديار الغرب حتى لقد تحس للحال بالفرق بين زراعة الوطنيين وزراعة المهاجرين فقرية بما ملكهم أرقى بزراعتها مرات من قرية كفرسبت وسكان هذه من مهاجرة الجزائر فبتنا تلك الليلة فى سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة وفى سفوح جبل الطور المشهور فى التاريخ المسيحى

وفى اليوم الرابع اجتزنا غابة غبياء من شجر البطم فرأيناها آيلة للخراب كما تؤول الآن غابات الشام كلها اللهم الاماكان من غابات لبنان التى تزيد ولا تنقص وقطعنا هذه الحراج فى ساعة ونصف حتى بلغنا قرية دبورية وفى منقطع أرض هذه الدسكرة يبتدىء مرج بن عامر أو سهل يزرعيل المذكور غير ما مرة فى التوراة . قطعناه بالعرض فى أربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ومنها دخلنا فى وادى عارة من عمل نابلس وطوله ثلاث ساعات وهو ضيق النطاق متوازى الاضلاع

حصب الرباع وفى آخره كان آخر عهدنا بجبال الشام اذ لم نعد نرى بعده جبلا يذكر حتى بلغنا أرض مصر فى جهات العريش وقطية فلمحنا عن بعد جبلا فى الرمال يسمونه جبل الحلال وبتنا الليلة الخامسة فى عيون الاساور على ساعتين من قيسارية [١] وهى قريه يسكنها مهاجرون من البوشناق وكانت من المدن الكبرى العامرة فى القديم . وفى اليوم السادس اجتزنا قرى بلاد نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة حتى بلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا وعنده حططنا رحالنا وطريق هذا اليوم والذى قبله عامر بالحبوب ويكثر الزيتون فى بلاد نابلس احدى أمهات مدن السامرة من كور فلسطين [٢] وتقل المياه حتى يضطر الاهلون أن يستقوا من أماكن بعيدة . وفى اليوم السابع اجتزنا بقرى الساحل أمثال جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بئر هديهد ، غزة وقضينا الليل فى دير البلح وفى اليوم الثامن بدأ سيرنا فى رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة وبعد أن سرنا ست ساعات دخلنا فى رفح أول حدود مصر والشام وقد كانت تنتابنى الهواجس تلك الليلة أحاذر أن أقع فى يد عدو للحرية أو أن أجالس من يستدل بذكائه على انى لست من تجارة الابل فى العير ولا فى النفير أو لا ناقة لى فى ذاك القطيع ولاجمل فما فتحت عينى قبيل الفسق الا وأنا أنشد بيت المتنبى

تدبير ذى حنك يفكر فى غد وهجوم غر لا يخاف عواقبا

فتفاءلت خيراً بالنجاة وان كنت لاأحب التفاؤل ولا التشاؤم ولا أبنى اعمالى على الاحلام والمرائى ، حتى اذا قيل لى ها أنت فى رفح تدوس تربة مصر قلت ما أحراها أن تدعى فرحا لا رفحاً ليكون لكل شىء من اسمه نصيب ، ولا غرو فليس أحلى من النجاة على من كان يتوقع الخطر ، أو من الوصل على من طال به السهاد والسهر

(١) قيسارية بفتح أوله واسكان ثانيه بعد سين مهملة وألف وراء مهملة مكسورة ثم ياء اخت الواو مخففة غير مشدودة وهاء التأنيث من ثغور الشام حاصرها معاوية سبع سنين الا شهرا وفتحها وبعث بفتحها الى عمر فقام عمر رضي الله عنه فنادى الا ان قيسارية قد فتحت قسرا — قاله البكري فى معجم ما استعجم ( طبع المانيا ) ( ٢ ) فى نزهة المشتاق للشريف الادريسى . اما حدود فلسطين وهى اول احواز الشام وحدودها مما يلى المغرب مقدار اربعة ايام وذلك من رفح الى اللجون وعرضه من يافا الى ريحا مسيرة يومين وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر الى بيسان والبرية تسمى الغور

ومن عجيب ما لاحظته فى أراضى فلسطين انى شهدت لحكومتها بعض أثر من عمل مثل انشائها بعض الجسور على الاودية فى حين لم أر عملا عمرانياً فى ولايتى سورية وبيروت كأن مجاورة لواء القدس للاراضى المصرية عدت فلسطين أو القسم الاعظم منها من ارتقاء بلاد الفراعنة فصحت عزيمة حكومة القدس على ان تمد جسوراً على الاقل وتعبد الطرق بعض الشىء لا جرم ان العلى تعدى كما قال أبو تمام ، ولقد كنا كلما اقتربنا من غزة نحس بتغير المشاهد فى بلاد أشبه بهوائها وزراعتها بالبلاد المصرية والناس يكادون يشبهون سكان الصعيد بالبستهم ولهجاتهم وهذا من عدوى الجوار وكثرة اختلاط المتجاورين من سكان القطرين فانك كما ترى جمهوراً كبيراً من جالية المصريين فى يافا وغزة هكذا تجد الجميز والموز من أشجار البلاد الحارة شائعين فى صقع غزة

دخلنا اليوم التاسع فى رمال ولم يكن يتغير شكلها خمسة أيام متوالية الى أن قالت الاسماعيلية ها أنا ذه . وهذه الرمال كانت تعرف قديماً بالجفار جمع جفر وهى البئر القريبة القعر الواسعة لم تطو قال ياقوت وهى أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبى متصلة برمال تيه بنى اسرائيل والخشبى بينه وبين الفسطاط ثلاث مراحل كما فى معجم البلدان فيه خان وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام قال أبو العز مظفر بن ابراهيم بن جماعة بن على الضرير العيلانى معتذراً عن تأخره لتلقى الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر وكان قد تلقى الى هذا الموضع

قالوا الى الخشبى سرنا على لهف ... نلقى الوزير جموعا من ذوى الرتب
ولم تسر قلت والمولي ونعمته ... ما خفت من تعب ألقى ولا نصب
وانما النار فى قلبى لغيبته ... فخفت أجمع بين النار والخشب

وكل الجفار رمال سائلة بيض فى غربيها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفى شرقيها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم وسميت الجفار لكثرة الجفار بارضها ولا شرب لسكانها الا منها وكان فيها لعهد ياقوب نخل كثير ورطب جيد وهو ملك القوم متفرقين فى قرى مصر يأتونه أيام لقاحه فيلقحونه وأيام ادراكه فيجنونه وينزلون بينه باهاليهم فى بيوت من سعف النخل والحلفاء ، وفى الجادة السابلة الى مصر

عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل ، وهى رفح والقس والزعقا والعريش والورادة وقطية وفى كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين [1] قال المهلبى واعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة والنخل فى جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان ( اما نحن فلم نر كرماً ولا رماناً ولا دكاناً ولا خاناً ) وأهلها بادية متحضرون ولجميعهم فى ظواهر مدنهم أجنة واملاك واخصاص فيها منهم كثير ويزرعون فى الرمل زرعا ضعيفا يؤدون فيه العشر وكذلك يؤخذ من ثمارهم ، ويقطع فى وقت من السنة الى بلدهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المرغ ( والمرغ هو الطير بالفارسية ) يصيدون فيه ما شاء الله يأكلونه طريا ويقتنونه مملوحاً ويقطع أيضاً اليهم من بلد الروم على البحر فى وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق وقل ما يقدرون على البازى وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراهة ما لبواشقهم وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم الى الحراس لانه لا يقدر أحد منهم يعدو على أحد لان الرجل منهم اذا أنكر شيئاً من حال جنانه نظر الي الوطء فى الرمل ثم قفا ذلك الى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقه ، وذكر بعضهم انهم يعرفون أسر وطء الشاب من الشيخ والابيض من الاسود ، والمرأة من الرجل والعاتق من الثيب فان كان هذا حقاً فهو من أعجب العجائب

قلت وبعض ما قاله هذا المؤرخ من الاستدلال بالاقدام على الاشخاص صحيح والوطء يبقى أثره فى الرمل اياما وليس من الصعب أن يتأثر المرء هنا من استباح جنته فانه اذا علا نشزا من هذه الرمال وهى عبارة عن تلعات ومنعرجات ومنفرجات وأحادير لا يلبث أن يشاهد السائر من مسيرة ساعات . وفى اليوم العاشر اجتزنا بالعريش وهو من البحر الابيض على نصف ساعة فالمسعوديات على الساحل وفى الحادي عشر نمنا بالمزار وفى الثانى عشر بالجنادل وفى الثالث عشر بابى العفين وفى الرابع عشر مررنا بالقطية وبتنا بعراص ، وفى الخامس عشر بلغنا الاسماعيلية فالقاهرة .

(١) قال المقدسى فاما الجفار فقصبتها الفرما ومدنها البفارة الورادة العريش وأما الحوف فقصبتها بابيس ومن مدنها مشتول جرجير فاقوس غيفا دبقوقونة بريم القازم

هذا هو الطريق الذى كان يطرقه المصريون والشاميون منذ عرف التاريخ وكثيراً ما كان بعضهم يؤثرونه على ركوب المراكب والسفن الشراعية لما كان فيها من الاخطار أيام لم يكن البخار ، يسير مراكب البحار . قطعناه فى أربعة عشر يوما وكان أجدادنا يقطعونه فى أربعة أيام على خيل البريد ، ومن هذا الطريق سار عمرو بن العاص سنة ١٩ للهجرة لفتح مصر فنزل العريش ثم أتى الفرما وبها على رواية البلاذرى قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى الى الفسطاط ، والفرمي أو الفرماء كان حصناً على ضفة البحر يحمل اليه ماء النيل فى المراكب من تنيس ويخزن أهله ماء المطر فى الجباب ، وكان بعض أهلها قبطاً وبعضهم من العرب وقد ورد ذكرها كثيراً فى شعر أهل القرون الاولى وفى الفرما أرق الخليفة المأمون رضى الله عنه لما سار الى مصر فبات فيها وقد ذكر بغداد ونعيمها وقصورها فقال

لليلك كان بالميدا ن اقصر منه بالفرما
غريب فى قري مصر يعانى الهم والسدما

والميدان من أحياء دار السلام والسدم الهم مع الندم والحزن ذكر المقريزى ان الدرب الذى يسلك فيه الى مصر فى القرن التاسع للهجرة لم يحدث الا بعد الخمسمائة من سنى الهجرة عند ما انقرضت الدولة الفاطمية . وفى المسالك والممالك أن الطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلا ( كذا والميل بحسب اصطلاحهم ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والاصبع أربع شعيرات ظهر واحدة الى ظهر الاخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل ) ثم الى جاسم بلد أبى تمام الطائى أربعة وعشرون ميلا ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلا ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلا ثم الى القلنسوة عشرون ميلا ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلا والطريق من الرملة الى أزدود ( ؟ ) اثنا عشر ميلا ثم الى غزة عشرون ميلا ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا فى رمل ثم الى الواردة ثمانية عشر ميلا ثم الى أم العرب عشرون ميلا ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا ثم الى جرير ثلاثون ميلا ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم الى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس

أحد وعشرون ميلا ثم الى الفسطاط مدينه مصر أربعة وعشرون ميلا فهذه ثلثمائة وخمسة وستون ميلا تبلغ نحو سبعمائة كيلو متر

وكان الدرب المسلوك من مصر الى دمشق من بلبيس الى الفرما فى البلاد التى كانت تعرف ببلاد السباخ من الجوف ويسلك من الفرما الى أم العرب وهى بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والواردة فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة أغار بغدوين صاحب الشوبك على العريش وهو يومئذ عامر بطل السفر حينئذ من مصر الى الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج الى ان استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدى الفرنج فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فصار يسلك هذا الدرب على الرمل الى أن ولى ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فأنشأ مدينة الصالحية فى سنة أربع وأربعين وستمائة فلما ملك الظاهر بيبرس البندقدارى رتب البريد فى الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها فصارت أخبار الممالك ترد اليه فى كل جمعة مرتين ويتحكم فى ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة وانفق فى ذلك مالا عظيما حتى تم ترتيبه وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة

وما زال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيل المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين واحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد الا برسوم سلطانى وتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته وتارة يركبه من يريد السفر من الاعيان برسوم سلطانى قال صاحب الخطط وكانت طريق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الامن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها وحرقها فى سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما

نزل بالبلاد من المحن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشا

قالوا والبريد خيل تشترى بمال السلطان ويقال لها السواس والعلوفات وهى مقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر الى كل مركز أصحاب النوبة بالخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم وهم لهذا يسمون خيل الشهارة وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطانى ، وقد أنشأ أمراء مصر وملوكها مثل كريم الدين وكيل الخاص الناصرى والملك الاشرف خليل وفخر الدين كاتب المماليك وناصر الدين الدوادار التنكزى وطاجار الدوادار وكافل الشام الطنبغا والظاهر بيبرس البندقدارى وغيرهم خانات ورباطات وفنادق ومساجد وآباراً ودساكر لأبناء السبيل وكان الطريق فى بعض الادوار يتحول قليلا من أول الكورة الى آخرها ولكنه لم يخرج قط فى كونه من مصر من الغرب الى الشرق ثم يعرج فى بلاد الشام نحو الشمال قليلا حتى دمشق

وكان حمام الزاجل الذى هو بمثابة تلغراف أجدادنا يسير من القاهرة الى بلبيس ومنها الى الصالحية ومن الصالحية الى قطية ومن قطية الى الواردة ومن لواردة الى غزة ومن غزة الى القدس ومن غزة الى نابلس ومن غزة الى لد ومن لد الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طفس ومن طفس الى الصنمين ومن الصنمين الى دمشق

وكان الثلج ينقل على الهجين من بلاد الشام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة وقد جاء زمن وهو لايحمل الا فى البحر خاصة — كما جاء فى التعريف بالمصلح الشريف — ومن الثغور الشامية بيروت وصيدا ويفرض على البقاع وبعلبك اوفادها فى ذلك وكان يسيرا فكثروقرر منه على طرابلس مما استقر على جبة بشرى والمنيطرة من عمل لبنان اليوم . والمركب تأتى دمياط فى البحر ثم يخرج الثلج الى الشرابخانات الشريفة ويخزن فى صهريج أعد له وأصبح فى القرن الثامن يحمل فى البر والبحر ومدة ترتيب حمله من حزيران ( يونيو ) الى آخر تشرين الثانى ( نوفمبر ) وعدة نقلاته فى البر ٧١ نقلة متقاربة مدة ما بينها . وقد

صار يزيد على ذلك ويجهز بكل نقلة بريدى يتداركه ويجهز معه ثلاج خبير بحمله ومداراته يحمل على فرس بريد ثان ، والمرصد فى كل نقلة خمسة أحمال والمستقر فى كل مركز له ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان قال العمرى : ولا يصل الثلج متوفراً الا اذا أخذ الثلج المجلد وأجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء وكذلك كانت المناور مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات العدو وقد أرصد فى كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم رايراءما امامهم وهى من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء . وهذه المناور بدخانها ونيرانها أشبه بالهليوستاو الابجكتيف لعهدنا

هكذا كان طريق مصر الى القرن التاسع للهجرة وهذا أقصى ما بلغته مدنية القوم فى أسباب النقل والراحة وينزل اليوم فى هذه النفود أى الرمال المتراكمة كما يسميها العرب أناس من عرب مصر يرجعون فى أصولهم الى بطون وأفخاذ معروفة عندهم تعرفهم بسيماهم ضئال الاجسام صفر الوجوه على نحو ما وصفهم واصفوهم فى القرون الوسطى وهم شاوية يقومون على تربية الشاء ولهم جمال قليلة وزروعهم فى الأكثر الشعير فى الشتاء والبطيخ فى الصيف ولهم نخيل قليل فى بعض واحاتهم وبالقرب من سبخاتهم ولا حجر فى ديارهم يبنون به بيوتهم ، ومساكنهم حقيرة يصنعونها من الخوص فلا هم بادية يأوون الى الخيام ولا هم حضر كالعرب النازلين منذ القديم فى ريف مصر كالفيوم والشرقية وغيرهما من مديريات القطر مثلا ولهجاتهم أقرب الى لهجة سكان جنوبى الشام منها الى اللهجة المصرية ومن فلسطين يكتالون ، وفي فلسطين يقضون شطراً من السنة فى رعى أغنامهم وماعزهم ولم تعمل الحكومة المصرية شيئاً لارتقائهم سوى انها نشرت أعلام الأمن على ربوعهم ، ولذلك ترى تجار الابل يأتون بها من بلاد نجد والجزيرة والشام ولا يزالون يحاذرون اعتداء السراق عليها حتى يبلغوا رفح وعندها يوقنون بانه لا يضيع لهم فى تلك البادية عقال بعير وكان عرب هذه النفود من قبل مثلا سائراً فى الاعتداء على السابلة وهم اليوم معفون من الضرائب والخدمة العسكرية وغريب كيف لا يناطهم قسط من مدنية مصر فحرموها كما حرموا

الاستمتاع بماء النيل العذب وتربة واديه الممرعة

***

هذه النفود هى الحد الطبيعى بين مصر والشام بل الحد الصناعى الذى اصطلحت عليه مؤخراً الحكومتان المصرية والعثمانية فى رفح والعقبة بل الحد الفاصل بين قارتى آسيا وافريقية لم يحل فى كل الازمان دون اختلاط أهل هذين القطرين الشقيقين ومن قرأ تواريخ الجبرتى وابن اياس والسخاوى وابن حجر والغزى وغيرهم يدرك ان هجرة السورى الى مصر ترد الى مئات من السنين ومن بحث فى أنساب من تولوا أعمال الحكومة المصرية وشاركوا مصر فى سعودها ونحوسها من العلماء والتجار والصناع يجد فيهم كثيراً من الشاميين وكذلك الحال فى المصريين ببلاد الشام فلا عجب اذا كان حظ مصر والشام واحداً فى السراء والضراء ، وعلائقهما الاقتصادية موفورة مستحكمة ، وليس اعلق بالقلوب من الصلات المالية . وانا لنرى الشام أمس واليوم وغداً تتأثر لاقل أزمة مالية فى مصر كما ان هذه تتأذى من العوارض السماوية أو الارضية كلما اجتاحت الشام ، فمصر والشام هما قطران بالاسم ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم وكل منهما متمم لصاحبه حتى لقد سئل أحد عمال الدولة العثمانية فى القرن الماضى عن رأيه فى القطرين فقال مصر مزرعة حسنة والشام مصيف جميل

واذ قد عرفنا ان أجدادنا أحسنوا الانتفاع من مجاورة القطرين العزيزين ساغ لنا ان نطالب فى هذا العهد بزيادة أواخى الاخاء بينهما من طريق البر على نحو ما هى عليه من طريق البحر فيسعى العقلاء من الماليين الى نيل امتياز يربط عاصمة الشام بعاصمة مصر بخط حديدى عريض حتى يأتى الراكب فى أربع عشرة ساعة بدلا من أربعة عشر يوماً واذا أحب القائمون بالامر الاكتفاء بوصل السكة الجديدة مع أقرب الطرق الى مصر فما عليهم الا ان يكتفوا الآن بايصاله الى القدس وهذه ستتصل هذا العام بخط حيفا مبدإ السكة الحجازية من محطة العفولة والمسافة بينهما لا تقل عن مئة كيلومتر تمد على نفقة ادارة الخط الحجازي ، ومعلوم ان حيفا مرتبطة بدرعا ودمشق وعندها يسهل على ابن مصر الاصطياف فى جبال

الشام وتبعث هذه بحبوبها وثمارها وترسل مصر الى الشام بشيء من مدنيتها وعلومها وانتظامها ويخلص كل من يريد أن يخلص الى مصر من هـذه الرمال الموحشـة المرعشة والمفازة المدهشة المعطشة التى تموذ منها كل من اجتازها وقاسى الامرين من مائها البشع المر المهوع المتروح ولولا انى تسليت عن المأكل والمشرب فى الايام الخمسة التى قضيتها فى اجتياز هذه المفاوز بما سمعته من أحاديث رفاق العرب فى الابل حتى صرت كأنى بعض رعاتها لطال على أمرها ولكنى حملت النفس على ان تتعلم الصبر من تلك الجمال وطبقت فيها بالعمل ما قرأته بالنظر أيام الطلب من مصطلحات العرب فى ابلهم وحدائهم فصار مذهبى ولا فخر جماليا بعد ان كان جماليا ، وعلمى بالاباعر عملياً وكان من قبل نظريا

وكأن رحلتى فى الشهر الماضى الى الحجاز وجنوبى الشام ونزولى على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مواكلة الاعراب فى صحفة واحدة والتخلى عن الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من أطعمتهم وهى الثمن أرز العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الصاج يسجر ببعر الاباعر ، والادام فى هذه الايام يخالطه رمل وهذا يدخل فى كل مأكول ومشروب تسفوه الرياح طوعا أو كرهاً ولقد صدق الواصفون منذ القديم لهذه الجفار بان « الخبز اذا أكل يوجد الرمل فى مضغه فلا يكاد يبالغ فيه »

وانى أحمد الله اليكم على انى قضيت أيام هذه الرحلة ولياليها برمتها لم أطالع فيها جريدة ولا مجلة ولا كتاباً ولا وقعت عينى على ورقة ، ولا مسكت قلماً ولا كتبت محاضرة ولا مقالة ولا نكتة ولا قيدت شاردة ولم أسمع غير حداء الابل وغناء الاعراب ولم يصل فكرى الى أبعد من عمل القهوة البدوية وأكل التمر ولم يبلغ أذنى غير أحاديث الابل فاصبحت ولله المنة استعذب ترددها استعذابى لترديد أخبار المدنيه . ومن نعم المولى على انى رأيت صورة مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب تمشى بين بلاد الشام ومصر ، ودرست نموذجا صالحاً من أخلاق العرب بالاختلاط بتجار الجمال ورعاتها ممن كانوا يختلفون الينا ونختلف اليهم كل مساء وصباح فلم أسمع كلمة هجر وبذاء وتجديف قط ، وما تبينت فى أخلاقهم الا

الجد الذى ليس وراءه جد ، والعزيمة التى تخور أمامها العزائم ، والبحث على الدوام فيما هم بسبيله من التجارة والعناية برعية ابلهم والقيام على صحتها فكان وجود السبط والارطة والقطف والحمط من العريش الى قطية فالاسماعيلية وغير ذلك من الاشواك والاعشاب كالشيح والرتم التى تستطيبها انعامهم أهم لديهم من كل حديث ، واشهى لقلوبهم من كل نغمة ، وافعل فى نفوسهم من كل نعمة من نعم الجمال والكمال

قضيت ويا لسعادتى أسبوعين كاملين فى عالم الاباعر والبعران ، والابل والحوار والبطين والبطنان والكثيب والكثبان وشين وزين وترد وتصدر وندلج ونسرى وننشد ونمرخ ونضحي ونعشى وغير ذلك من فصح العربية الباقية على أسلات ألسن أولئك العرب الاميين ولو أردت أن استوفى ما سمعته من هذا القبيل لاستعرق مجلداً برأسه وما أحلى ما سمعته من أحدهم وهو يقول لصاحبه يافلان خذ من فلان كذا جنيهاً وأنت الفالج أى الرابح من الفلج وهو الظفر وكيف لا أؤخذ بما وعيت ورأيت وأنا طول هذه الفترة لم أسمع نميمة ولا غيبة ولا شهدت كذباً ولا منكراً وكان أولئك الاعراب باجمعهم مواظبين على صلواتهم بدون تكلف يتيممون يوم يقل ماؤهم ، ولا يسرفون فيه اذا وجد . أخلاق طاهرة متينة ما كنت أظنها باقية فى البادية وأرجو أن لا تفقد بتاتاً من أهل الحضر ولو تهيأ لسكان اليمن ونجد خاصة شيء من المدنية الصحيحة لفاقوا ولا جرم الانكليز السكسونيين باخلاقهم وأناتهم ورويتهم ، وانى لما خبرت القوم أيقنت بفساد القضية التى وضعها أحد الباحثين فى أصول الشعوب من أن الطيش والرعونة والفسق تغلب على سكان البلاد الحارة ومع ان بلاد هؤلاء الاعراب من الاقاليم الحارة جعلت منهم التربية الدينية المعتدلة أهل اعتدال وكمال ورجال مال وأعمال

هذا وقد أطلت حواركم حتى خفت عليكم التبرم بحديثى وانى حامد شاكر لكل ما تم على لا يقانى بان الحوادث أكبر معلم ولولا الحادثة الاخيرة فى دمشق لما تيسر أن أبلغ مصر من شرقها وان أستمتع بلقياكم الآن وأرجو أن يدوم لى هذا الاستمتاع ولكن على شرط أن يقيض الله للبلاد العثمانية من يغار على مصلحتها وينقذها من سقطتها . واسأل قاهر الجبابرة والسلاطين أن يمن علينا بنعمة الراحة أجمعين

# مدن العرب[1]

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدنية الاسلامية أن العرب إبان عزهم لم يأتوا شيئاً يذكر فى أعمال العمران ، وان قصاراهم ان تلقفوا بعض المدنية الفارسية واليونانية وتمتعوا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من بعدهم من أمم المدنية الحديثة فى الغرب . ويقول بعضهم انهم كانوا فى فن البناء دون الرومان، وان قصورهم الباقية لا تشهد بتفنن عجيب فى الهندسة على ان الباقى من آثارهم الى اليوم فى الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهد ابد الدهر بابطال دعوى المدعين وما يحيك فى صدورهم من الاهواء

ولقد رأينا بعضهم يتوكأون فى الحط من اقدار العرب فى العمران على الفصل الذى عقده ابن خلدون فى مقدمته فى « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان أسرع اليها الخراب » الذى قال فى آخره : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فالمين قرارهم خراب الا قليلا من الامصار ، وعمران العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر »

هذا ما يحتجون به ولو علموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو أو البادية أو العربان الرحل كما نسميهم لعهدنا لارتفع كل اشكال والا فان المدن التى مدنها العرب أيام عزهم ، والامصار التى مصروها ، والقرى التى عمروها ، لا تدخل تحت حصر فى كل قطر دخلوه ولو أياماً مما لم يتيسر لغيرهم من الامم كالترك مثلا الذين حكموا الاقطار الواسعة العامرة بطبيعتها ستمائة سنة ولا تكاد تعرف لهم

(١) نشرت فى المجلد السابع من مجلة المقتبس

مدينة أسسوها ، ولا مواتاً أخصبوه ، ولا ماء أسالوه ، وشغلهم الشاغل حروب وغزوات . هكذا مضوا أيام القوة وهكذا الحال زمن الضعف

ومن قرأ كتب وصف البلاد تجلى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهم ، خذ لك على سبيل المثال ما رواه الاقدمون فى كيفيـة بناء سامرا أو سر من رأى احدى المدن العباسية التى أنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد فقد قالوا ان السفاح أراد أن يبنى سامرا فبنى مدينة الانبار بحذائها وأراد المنصور بعد ما أسس بغداد بناءها فابتدأ بالبناء فى البردان ثم بدا له وبنى بغداد وأراد الرشيد أيضاً بناءها فبنى بحذائها قصراً وهو بازاء أثر عظيم قديم كان للاكاسرة ثم بناها المعتصم ونزلها فى سنة ٢٢١ وكان الرشيد حفر نهراً عندها سماه القاطول وأتى الجند وبنى عنده قصراً ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصراً ووهبـه لمولاه اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى ، بنى داراً وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله وبنى بها مسجداً جامعاً فى طرف الاسواق وانزل اشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا . وهو كرخ فيروز وأقام ابنه الواثق بسامرا حتى مات بها ثم ولى المتوكل فاقام بالهاروني وبنى به أبنية كثيرة واقطع الناس فى ظهر سر من رأى فى الحيز الذى كان احتجره المعتصم ، واتسع الناس بذلك وبنى مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسـخ فجمعوا الناس فيه وتركوا المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا واشتق نهراً آخر وقدره للدخول الى الحيز فمات قبل أن يتمم وحاول المنتصر تتميمه فلقصر أيامه لم يتمم ثم اختلف الامر بعـده فبطل وكان المتوكل انفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم والقصر المختار خمسة آلاف ألف درهم والوحيد ألفى ألف درهم والجعفرى المحدث عشرة آلاف ألف درهم والغريب عشرة آلاف ألف درهم والشيدان عشرة آلاف ألف

درهم والبرج عشرة آلاف ألف درهم والصبح خمسة آلاف ألف درهم والمليح خمسة آلاف ألف درهم وقصر بستان الألتاخية عشرة آلاف ألف درهم والتل علوه وسفله خمسة آلاف ألف درهم والجوسق فى ميدان الصخر خمسمائة ألف درهم والمسجد الجامع خمس عشر ألف ألف درهم وبركوان للمعتز عشرين ألف ألف درهم والقلائد خمسين ألف دينار وجعل فيها أبنية بمائة الف دينار والغرد فى دجلة ألف ألف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة خمسين ألف ألف درهم والبهو خمسة وعشرين ألف ألف درهم واللؤلؤة خمسة آلاف ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم

وكان المعتصم والواثق والمتوكل اذا بنى أحدهم قصراً أو غيره أمر الشعراء أن يعملوا فيه شعراً فمن ذلك قول على بن الجهم فى الجعفرى الذى للمتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ل تقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الاما م رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم فى طول اعمارها
وللروم ما شيد الاولون وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلمين على ملحديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون اذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو م تضىء اليها بأسرارها
نظمنا النفاس نظم الحلى لعون النساء وأبكارها
لوان سليمان أدت له شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم تقدمها فضل أخطارها

وقال الحسين بن الضحاك:

سر من را أسر من بغداد فاله عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو أبداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزهـ ـر عليها محبر الأبراد

واذكر المشرف المطل من التـ ـل على الصادرين والوراد
واذا روح الرعاء فلا تنـ ـس رواعي فراقد الأولاد

وله فيها و بفضلها على بغداد :

على سر من راء المصيف تحية مجللة من مغرم بهـواها
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة تقرب من ظليها وذراها
محلان لقى الله خير عباده عزيمة رشد فيهما فاصطفاها
وقولا لبغداد اذ ما تنسمت على أهل بغداد جعلت فداها
أفى كل يوم شف عينى بالقذا حرورك حتى رابنى ناظراها

قال ياقوت ولم تزل كل يوم سر من رأى فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم والواثق الى آخر أيام المنتصر بن المتوكل فلما ولى المستعين وقويت شوكة الاتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بنى العباس لم تزل سر من رأى فى تناقص للاختلاف الواقع فى الدولة بسبب العصبية التى كانت بيد أمراء الاتراك الى أن كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله أمير المؤمنين كما ذكرناه فى التاج وخربت حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد الذى تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدى ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن فى الارض كلها أحسن منهـا ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها فسبحان من لا يزول ولا يحول

وذكر الحسن بن احمد المهلبى فى كتابه المسمى بالعزيزى قال وأنا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فاما حيطانها فكالجدد فما زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهى مقدار قرية يسيرة فى وسطها ثم سرنا الى الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو الظهر ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ

وكان ابن المعتز مجتازاً بسامرا متأسفاً عليها وله كلام منثور ومنظوم فى وصفها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد ويعمر بها

فقال ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رأى وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائى على الأمم
فكل ما فيه مبذول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها ويذم بغداد وأهلها ويفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر وقد وكلت الى الهجر نواحيها واستحث باقيها الى فانيها وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الاثر والمقيم بها على طرف سقر نهاره ارجاف وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع فخالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض بالجنود أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول من خيل تأكل الارض بحوافرها . وتمد بالنقع سائرها . قد نشرت فى وجوهها غرراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة اللجين ونوطت عذراً كالشنوف فى جيش يتلقف الاعداء أوائله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا لا تخلف مخيلته ولا تنقض مريرته ولا يخطىء بسهم الرأى غرض الصواب ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا يتشظى عصاه ولا تطفأ جمرته فى سن شباب لم يجن مأثماً وشيب لم يراهق هرماً قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته راجماً بالعواقب الظنون لا يطيش عن قلب فاضل الحزم بعد العزم ساعياً على الحق يعمل به عارفا بالله يقصد اليه مقراً للحلم ويبذله قادراً على العقاب ويعدل فيه اذ الناس فى دهر غافل قد اطمأنت بهم

سيرة لينة الحواشي خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الحبور فالاطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل أن تحث مطايا الغير وتسفر وجوه الحذر وما زال الدهر ملياً بالنوائب طارقاً بالعجائب يؤمن يومه ويغدر غده على انها وان جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر ويومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء وشرابها مريء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك لا كبغداد كم الوسخة الومدة الهواء جوها نار وأرضها خبار وماؤها حميم وترابها سرجين وحيطانها نزوز وتشرينها تموز فكم من شمسها من محترق وفي ظلها من غرق ضيقة الدار قاسية الجوار ساطعة الدخان قليلة الضيفان أهلها ذئاب وكلامهم سباب وسائلهم محروم ومالهم مكتوم لايجوز انفاقه ولا يحل خناقه حشوشهم مسابل وطرقهم مزابل وحيطانهم أخصاص وبيوتهم أقفاص ولكل مكروه أجل وللبقاع دول والدهر يسير بالمقيم ويمزج البؤس بالنعيم وبعد الحاجة انتهاء والهم الى فرجة ولكل سائلة قرار وبالله أستعين وهو محمود على كل حال

غدت سر من را في العناء فيالها ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شبيهاً بحالها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل
اذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ويطول بنا المقال اذا أردنا استقصاء أسماء المدن العربية كلها من شواطىء بحر الظلمات في الغرب الى شواطىء المحيط الهندي في الشرق قال البلخي : ومن يحصي بناة المدن وواضعي القرى ومن يعلم مبادىء انشائها الا الله عز وجل وهبنا أخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجد في كتبهم والمدن التي أحدثت في الاسلام لقرب العهد وجدة التاريخ فمن لنا بمدن الهند والصين والروم والترك وليس كل مدينة أو قرية مبنية منسوبة الى بانيها لانه قد تسمى المدينة باسم البانى أو باسم لها قبل حدوثها أو باسم ماء أو شجر أو شيء ما وقد يجوز أن يجتمع قوم بموضع من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانياً لها قاصداً اليها الى أن قال والكوفة مصرها سعد بن أبي وقاص وكان بها رمل فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن غزوان وسماها بحجارة

بيض كانت فى موضعها وواسط بناها الحجاج ويقال لذلك واسط القصب ويقال بل توسطت البصرة والكوفه وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزرواء ويقال بغ اسم صنم وسمتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها جعفر المنصور بنا بها قصر الخلد بناها فى الجانب الغربى من دجلة وجعل حواليها قطائع لحشمه ومواليه واتباعه كقطيعة الربيع والحربية وغيرها ثم عمرت وتزايدت فلما ملكها المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى فسمى عسكر المهدى وتزايدت بالناس والبناء .

قال البلخى : فاعلم ان المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلأ والحطب فاذا فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبق . قال بعض الجغرافيين : مصرت البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة اربعة عشرة وعظم أمرها حتى سميت قبة الاسلام ولها نخيل متصلة من عبداس الى عبدان نيف وخمسون فرسخاً ثم بنى بعد ذلك واسط بناها الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهى جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعا وفى الجانبين جامعان ثم لما استخلف الله من بنى العباس السفاح بنى مدينة قريبة من الكوفة وسماها الهاشمية ثم رحل عنها الى الانبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها الى ان مات فلما ملك أخوه المنصور بنى على دجلة بغداد ويقال ان اسمها بك داد معناه دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل وسميت مدينة السلام لانها يسلم فيها على الخلفاء ولأنها على دجلة نهر السلام وفى تسميتها بغداد وبغداد وبغذاذ وكان ابتداء بنائها فى سنة خمس وأربعين ومائة وتم بناؤها فى سنة تسع واربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدى ولد المنصور مدينة تجاهها سماها الرصافة سنة احدى وخمسين ولبغداد من المدن والبلاد صرصر وقصر ابن هبيرة مدينة بناها يزيد بن عمر بن هبيرة

واليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وأمصارهم فمنها شيراز وهى مدينة اسلامية بناها محمد بن أبى القاسم الثقفى على أثر بناء قديم ومدينة قم كورها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالا وكان اسم احدى القرى كميدان فاسقطوا بعض الحروف للايجاز والاختصار وابدلوا الكاف قافاً

والمنصورية فى الهند مدينة بنيت فى صدر الاسلام وتسمى بالهندية تاميران كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران . والحلة فى العراق بناها سيد الدولة صدقة بن دبيس سنة خمس واربعين واربع مائة وتسمى الكوفة الصغرى لكثرة ما فيها من التشيع وأردويل وتسمى أردبيل فى بلاد اذربيجان مصرت أيام الرشيد وانما سميت باسم اردبيل بن ارمينى ومراغة بناها محمد بن مروان بن الحكم وكانت قبل مراغة لدوابه فسميت بذلك ومرند بناها الافشين على أثر بناء قديم ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد أرمينية مدينة شمكور وكانت مدينة قديمة أخربتها الصناوردية ثم جددها بغا سنة أربعين ومائتين وسماها المتوكلية . ومن مدن الجزيرة مدينة أذرمة بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبى وبنى المنصور الى جانب مدينة الرقة قصبة ديار مضر مدينة وسماها الرافقة سنة خمس وسبعين فخربت الاولى وبقى الاسمان واقعين على مدينة واحدة ومن مدن حضرموت فى اليمن مدينة الشحر ولم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منه فى اخصاص فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين وتسمائة . وكذلك بلاد مهرة ومصرها ظفار بناها احمد بن محمد وسماها الاحمدية فى سنة عشرين وستمائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند وأحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك سبعة عشر ميلا ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية وبيكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم أيضاً . ومن مدن خراسان الجبلية ذوات الكور العريضة والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسامان وبيورد مدينة وزوزن وكومن بناها عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من أعمال خراسان وبنى فى اقليم مازندران دهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن المهلب سنة ثمان وتسعين مدينه بكراباد فى ذلك الصقع نفسه

وبنى عمرو بن العاص الفسطاط ( مصر ) وبنى احمد بن طولون القطايع ولما ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسماها القاهرة. وفى افريقية مدينة المهدية بناها المهدى العبيدى سنة ست وثلاثمائة ومدينة بونة بنيت بعد الخمسين واربعمائة ومدينة بجادته وهى مدينة حسنة البناء طيبة

الفناء بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربع مائة . ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين . ورباط الفتح فى سلا من أعمال طنجة بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناه المنصور من بنى عبد المؤمن . والسوس الاقصى يقال ان أول من عمره وأجرى فيه الانهار عبد الرحمن بن مروان بن الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تامدلت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناء عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة ايغلى بانيها عبدالله بن ادريس أيضاً ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجى سنة ٤٩٠ ويلى مراكش فاس وهى مدينتان إحداهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٢٩٢ والاخرى عدوة القرويين بنيت سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوى وأشير بناها زيرى والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدى المنعوت بالقائم وسماها المحمدية وقلعة بنى حماد بناها حماد بن زيرى والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة بطليوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدينة تطيلة بنيت أيام الحكم بن هشام والهارونية من أعمال الفاكية بناها هارون الرشيد

وسلمية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلى بن عبد الله بن عباس وطرابلس المستجدة بعد طرابلس الشام بجيش المسلمين فى مملكة الملك المنصور وسيف الدين قلاوون الضالحى بنيت فى سفح ذيل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة الخربة نحو من خمسة أميال على شاطىء نهر يجرى الى البحر وهى المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والمعصر لمدينة انطرسوس معاوية بن أبى سفيان فى أيام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان بن الحكم ثم المنصور بعده وسميت الثغور لان المطوعين من أهل الحوزة كانوا يرابطون فيها ويغزون مدن الروم . واذنة ( اطنة ) بناها الرشيد على نهر سيحان .

وطرسوس بنيت فى أيام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر مكرم نزلها مكرم بن مطرف اللخمى فصارت مدينة ونسبت اليه .

ومدينة الاقلام بافريقية مدينة احدثها آل ادريس وسيله مدينة احدثها على ابن

الاندلسي أحد خدم القائم بجانه وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذا ما التقطناه في هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

# سماع الالحان[1]

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأي شأن عند الامم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور نمرود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين[2] والمغنين وأدوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

---

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) في لفظ الموسيقى كما في سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين لفتان احداهما موسيقى بمثنتين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والاخرى موسقي بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللفتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهملة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالحان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماً على هذا العلم في سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف في لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زاياً والقاف كافاً وفتحوا الكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذهم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فانهم يعبرون تارة بموسيقى